استدعاء التراث في شعر ابن قلاقس
بين التوظيف والاجترار

الدكتور/ محمد صبحي عبد الفتاح الجمال

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر

أستاذ الأدب والنقد المشارك بجامعة جازان

المقدمة

أحمد الله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأن محـــمدا رسول رب العالمين خير مبعوث إلى خير أمة بخير دين وبعد :

فهذه محاولة للتنقيب عن الملامح التراثية في شعر واحـــد مـــن الشعراء الذين أحسنوا الإفادة من العطاء الشعري الباذخ لشعراء العربية الأفذاذ ، وهو مسلك يلبي حاجة نفسية لدى كل غيور على عروبته ساع إلي بعث تراثها واستدعائه في سني التراجع الحضاري التـــي تكتنـــف مسيرة الأمة ، وبدهي أن تراث الأمم يحمل في طياته كثيرا من ملامح القوة وأمارات التفوق التي لا غنى عنها في بناء الحضارات وتوطيـــد دعائمها وإعلاء صروحها ٠

والمتأمل في شعر ابن قلاقس يجد نفسه أمام مزيج محبب مـــن الشعر الجاهلي والإسلامي قد انصهر في بوتقة تلميذ نجيب وأديب فاقه لأسرار العربية فأحاله لونا جديدا من الشعر يجمع بين أصالة الماضي

وجدة الحاضر ويؤلف بين تليد الشعر وطريفه في نظم رائـــق وانسجام تام ، فإذا شئت أن تتبدى لك شخوص الأعشى وزهير وحسان والمتنبي وأبي نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبي تمام والبحتري فستجد ذلك كله ماثلا في هذا الديوان الماتع الـــذي ســـطرته يراعة شاعرة ومقدرة أدبية لا تتأتي للكثيرين ٠

وهنا قد يثور تساؤل : كيف يسمى صنيع ابن قلاقس اســـتدعاء للتراث وهو يعد واحدا من مكونات هذا التراث بحكم انتمائه التـــاريخي إلى العصر العباسي الثاني الذي يمثل البقية الباقية من العصور الأدبية

الزاهية ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل أقول : إن علاقة الشاعر العربي بالتراث علاقة وطيدة الدعائم ثابتة الأركان قوية الجذور لأن التراث العربي يمثل الركيزة الأساسية والمنطلق الرئيس للإبداع الشعري في العصور المختلفة ، ولست أبالغ حين أقول إن هذه المسألة تمثل إحدى المسلمات الأدبية لدى الشعراء العرب منذ فجر الشعر ، وإلا فبماذا نفسر قول عنترة المشهور :

هل غادر الشعراء من متردم ** أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقول كعب بن زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا ** أو معادا من لفظنا مكرورا

فهذه النماذج وغيرها كثير ما هي إلا إقرار بالأثر العميق الذي يتركه السابق في اللاحق ، واعتراف من الشعراء بترسم خطى السابقين والإفادة من تجاربهم وإبداعهم ، يقول الدكتور علي عشري زايد : (إن علاقة الشاعر العربي بتراثه علاقة قديمة قدم الشعر العربي ذاته ، فهذه العلاقة وإن وهنت في بعض العصور أو تغيرت صورها وطبيعتها من عصر إلى عصر فهي لم تنقطع أبدا ، حيث لم يكف الشاعر العربي في أي عصر من العصور عن استرفاد تراثه واستلهامه علي أي نحو من أنحاء الاسترفاد والاستلهام) [١]

(١) توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر مجلة فصول مجلد ١ العدد ١١ ١٩٨٠ ، ٢٠٣

هذا وينقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة

التمهيد : أضواء على حياة الشاعر والمصادر التراثية في شعره .

المبحث الأول : استدعاء النص التراثي .

المبحث الثاني : استدعاء الشخصيات التراثية .

المبحث الثالث : استدعاء السمات الفنية

المبحث الرابع : مزالق استدعاء التراث

الخاتمة ، وتحوي أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده ، وما كان من خطأ أو تقصير فمني وحسبي أنني اجتهدت في التعلق بالأسباب ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

أضواء علي حياة الشاعر

هو أبو الفتح نصرالله بن عبدالله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي الأزهري الأسكندري الملقب بالقاضي الأعز ، ولد بثغر الأسكندرية يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة ٥٣٢ هـ إبان حكم الفاطميين (١) ، اشتهر في كتب الأدب بابن قلاقس (وأرجح سبب لهذه الكنية أن أحد الأجداد في عمود نسبه يسمى بقلاقس فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه ، وكان على ما يظهر نحيفا ضئيل الجسم وظلت صفة النحافة ملازمة له لم تبرحه طوال حياته ، ويرى بعض الرواة أنه لم تكن له لحية) (٢) ، وغريب أن نعلم اليوم والشهر والسنة التي ولد فيها ولا نعرف إلا القليل عن ظروف نشأته وعن أسرته وذويه اللهم إلا أنه ينتمي إلى أصل عربي كما تدل النسبة إلى لخم التي أوردها في شعره حيث يقول :

يا بني كندة أنتم درر * * قلدت تيجان صيد العرب

أنا من لخم ولكن جاركم * * وحقوق الجار فوق النسب

ولنا أصل نما في يمن * * باسق الفرع زكي المنصب

ومن المؤكد أن أسرة الشاعر كانت فقيرة رقيقة الحال ، ففي ديوانه عشرات القصائد التي تدل على أنه كان يعاني في مطلع شبابه من صنوف الجوع والحرمان ، ومن ذلك قوله يمدح المحدث المشهور الحافظ السلفي وكان يحدب على الشاعر ويعطيه راتبا جاريا :

أشكو إليك ثلاثة أوهت قوى * * جسدي فبت على شفير هار

(١) ديوان ابن قلاقس تحقيق الدكتورة سهام الفريح مكتبة المعلا الكويت ط الأولى ١٩٨٨، ١٥

(٢) قصة الأدب في مصر د. محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل الطبعة الأولى ١٩٩٢ ج٢ ، ٥٧

وأقول ما قال الخليع مترجمـــا * * عن حاله بنتائج الأفكـــــار
أنا شاعر أنا شاكر أنا ناشـــد * * أنا راجل أنا جائع أنا عـــــار
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * * فكن الضمين لنصفها بعيار (١)

اشتهر ابن قلاقس بكثرة أسفاره وتنوع رحلاته فقد (كان واســع الطموح متقلب الأهواء نزّاعا إلى الرحلة والمغامرة ، ســاخطا علــى الأقدار لأنها تمنع عنه ما يرى أنه أهل له ، وليس غريبا أن يفكر هــو أو غيره من رجال الأدب في الهجرة والابتعاد عن مصر لأن المنــاخ السياسي كان غائما ينبئ بالقلاقل والمحن ، وفــي مثــل هــذا الجــو المضطرب تنصرف الأذهان عن الشعر وأهله) (٢)

وكانت أولى الرحلات إلى صقلية ولعل السر في هــذا الاختيــار (أن جماعة من فضلاء صقلية وأعيانها قد سمعوا بفضله ممــن حلــوا بالإسكندرية طلبا للعلم فبعثوا إليه يستقدمونه إليهم ، فسار ابن

قلاقس إلى صقلية واتصل هناك بأبي القاسم بن حجــر صــاحب ديوان الإنشاء بالجزيرة ودبج فيه قصائد تعتبر من خير ما قاله من شعر ، وكان من أشهر ممدوحيه بها أيضا : هبة الله الحصري وابــن فــاتح الفقيه قاضي صقلية والشاعر ابن خلف الأموي ولم يمدح من ملوكها إلا غليالم الثاني ، ولا شك أن الرحلة إلى صقلية قد خلفت أثرها في نفسية الشاعر وفي أعماله ، فهي التي جعلته ينتج كل هذا الشعر في وصــف البحر والأسفار والحنين إلى الوطن) (٣)

---

(١) أدب مصر الإسلامية د . محمد زكريا عناني ، د. سعيدة محمد رمضان ١٩٨٨اطبعة خاصة ٧٥، ٧٦.
(٢) السابق ١١٣.
(٣) الأدب في العصر الأيوبي د . محمد زغلول ســلام منشــأة المعــارف بالأســكندرية الجــزء الثاني١٤١.

وحين عاد شاعرنا إلى مصر في سنة ٥٦٥ ه وجد الخلافة الفاطمية تعاني من آلام النزع الأخير وكان العاضد وقتها لا يزال الخليفة الشرعي للبلاد فأخذ في مراسلة بعض رجالات اليمن كأبي بكر العيدي وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء فيها ، وبعد وصوله إلى عدن اتصل بكثير من رجالات اليمن وقال فيه القصائد الطوال وفي مقدمة ممدوحيه فيها : الوزير ياسر بن بلال وولدي الداعي الفاطمي هناك والشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن الكاتب والقاضي الأشرف بن الحباب ومالك بن السداد صاحب دهلك وغيرهم كثير ، ثم عاوده الحنين إلى موطنه الإسكندرية فأبحر من هناك رحلته الأخيرة فقد غرق به المركب بالقرب من عيذاب في سنة ٥٦٧ه وهكذا توفي ابن قلاقس وهو في الخامسة والثلاثين من عمره (١)

خلف ابن قلاقس إنتاجا شعريا هائلا يدل عليه ديوانه الذي يربو علي سبعمائة صفحة ويضم ٨٠٨٠ (ثمانية آلاف وثمانين بيتا) ، ولم يقف في إنتاجه الفني عند نظم الشعر لا سيما أن عصره قد ازدهرت فيه الكتابة الأدبية ومن آثاره النثرية كتاب (الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم) ، (مواطر الخواطر) ، (روضة الأزهار في طبقة الشعر) وغيرها ، ويمثل ابن قلاقس في شعر عصره ما يمثله صديقه القاضي الفاضل في النثر ويكتسب شعره قيمة تسمو به إلى درجة عالية من الجودة وحسبنا قول ابن نباتة : (طالعت شعر الأديب الأريب البارع أبي الفتح نصر الله بن قلاقس رحمه الله فطالعت الفن الغريب ، وفتح علي بتأمل ألفاظه فتلوت (نصر من الله وفتح قريب) بيد أني

(١) الديوان ٧٨

وجدت له حسنات تبهر العقول فضلا ، وسيئات يكاد بذكرها ابن قلاقس يقلى ، إما أن يكون قرضها في مبادئ عمره ، وإما أن تكون غواة الرواة ألحقتها بنسب شعره) [١]

وقال عنه ابن خلكان : كان شاعرا مجيدا وفاضلا نبيلا) [٢]

ويقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار مشيرا إلى مكانته الأدبية ومنزلته بين شعراء عصره : أطفأ شعراء عصره على أنهم نجوم سماء تزهر مصابيحها ، وتهب في مهاب الصبا ريحها ، فكسدت لسببه بضائعهم ، وفسدت بأدبه صنائعهم ، وجاء بالفن الغريب ، وأتى منه نصر من الله وفتح قريب ، ولم تزل تجري به سفائر آل ، وسفين بحر يسمو به حباب الماء حالا على حال ، لغربة منى بها غالب عمره القصير ، وأسفار بلى بها ولا يعرف إلى أين المصير ، وقد كان له في الدولة الصلاحية مقيل لو اكتفى بظلها ، ووافى بظلمائه إلى زلالها ، ولكنه اتخذ التشتيت في البلاد دابه لا يسأم دوامه ، ولا يضرمه أوامه ، على أن الحرمان ما ملأ له كيسا ، ولا أقر به عيسا ، هذا مع أنه ما حل بأرض إلا وعبقت به رحابها ، وتعلقت بجلابيب إقامته أصحابها ، وحيي بوسيع القرى ، وسريع الكرم الحثيث ، إلا أن حرفة الأدب كانت عليه غالبة ، وشقوة الحظ لما لديه سالبة) [٣].

---

(١) مقدمة الديوان ص١٦

(٢) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق د . إحسان عباس دار صادر بيروت ج ١ : ٢٦٢.

(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار دار الكتب العلمية ت : كامل سلمان الجبوري ط ١ ج ١٨ ص ٣٥.
أحمد بن محمد بن سلفة (بكسر السين وفتح اللام) صدر الدين أبو طاهر السّلَفي الأصبهاني(٤٧٨) حافظ مكثر من أهل أصبهان ، رحل في طلب الحديث وبني له العادل (وزير الظافر العبيدي) مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٤٦ فأقام بها إلي أن توفي سنة ٥٧٦ ه ، ينظر : الاعلام للزركلي دار العلم للملايين ط ١٥ مايو ٢٠٠٢ ،٢١٥

هذه النصوص وغيرها كثير تظهرنا على أن شاعرنا كان دائم الترحال يعرض بضاعته على الأمراء والوجهاء طلبا للمال وتكسبا بالشعر مادحا ولاة الفاطميين تارة والأيوبيين تارة ونظائرهما في صقلية واليمن تارة أخرى ، فضلا عن كبار العلماء كالحافظ السلفي ومشاهير الكتاب كالقاضي الفاضل مما يكشف عن قدرة ابن قلاقس على معالجة فنون الشعر وفي طليعتها المدح والوصف والحنين ، فضلا عن براعته في التشبيه وولوعه بالمحسنات البديعية وغيرها من السمات الفنية .

المصادر التراثية في شعر ابن قلاقس

أولا : المصادر الدينية :

يعد ابن قلاقس من الأدباء ذوي الثقافة الدينية والاطلاع الواسع على كثير من علوم الفقه والحديث والعقيدة ، ولا غرابة فلقد نشأ نشأة دينية واتصل بكثير من علماء عصره وشيوخ زمانه وأخذ عنهم (وكان أشهر هؤلاء العلماء وأعمقهم تأثيرا في نفسه الفقيه الحافظ السلفي[١] الذي امتدحه بالأعم الأغلب من روائع شعره وبديع قصائده ، ويأتي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في صدارة ما فقهه علوم وطليعة ما اكتسبه من معارف وها هو ذا يشير إلى ما حفظه من القرآن الكريم فيقول :

قد قرأت القرآن حفظا فلم * * أحفظ بما فوق سورة الأنعام

(١) أحمد بن محمد بن سلفة (بكسر السين وفتح اللام) صدر الدين أبو طاهر السّلَفي الأصبهاني (٤٧٨) ، حافظ مكثر ، من أهل أصبهان ، رحل في طلب الحديث وبني له العادل (وزير الظافر العبيدي) مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٤٦ فأقام بها إلي أن توفي سنة ٥٧٦ ه ، ينظر : الأعلام للزركلي دار العلم للملايين ط ١٥ مايو ٢٠٠٢.

كما كان مطلعا على الحديث النبوي الشريف عارفا بكثير من رجاله، ففي قصائده التي مدح بها الحافظ السلفي كثيرا ما يذكر أسماء رجال الحديث ونقلته كالشافعي (٢٠٤) وإسحاق بن راهويه (٢٤٩) ويحي بن معين (٢٣٣) ترى ذلك في قوله مادحا شيخه السلفي :

هو كالشافعي علما وإسحا * * ق ويحيي ضبطا وعمق أصالة

كما يشير إلى جملة من كبار مؤلفي الصحاح ومسانيد الحديث من أمثال : محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦) ومسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١) ومسدد بن مسرهد البصري الأسدي الحافظ وهو من كبار رجال الحديث فيقول :

ضاهى البخاري المحدث رتبة ** مع مسلم ومسدد بن مسرهد

ويشير أيضا إلى أبي عروة عمرو بن راشد الأزدي وهو من رجال الحديث في اليمن (١٥٣) فيقول:

أكرم به من بارع مثل الهلال الطالع ** كمالك والشافعي ومعمر في اليمن

وفي موضع آخر يشبه ممدوحه السلفي بأبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (١٦١) وكان من المشهود لهم بالعلم والتقوى؛ إذ يقول :

من هو الثوري في النا * * س إذا قال روينا

هذا وغيره يؤكد أن ابن قلاقس من الشعراء ذوي الثقافة الدينية الراسخة والاطلاع الواسع على العلوم الدينية في منابعها الأصيلة وهذا ما تجلت آثاره في شعره ، وأهم من ذلك أن نشأته الدينية وثقافته

الواسعة عصمته من الزيغ والانحراف في ذلك العصر الذي شهد ألوانا من الصراع الفكري والمذهبي لا سيما بين الشيعة والسنة [١]

ثانيا : المصادر التاريخية

للتاريخ آثارة العميقة في حياة الشعوب ، ولأحداثه أعظم صدى في نفوس الأدباء والمفكرين ، (فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي ، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد علي امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى ، فدلالة البطولة في قائد معين أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة [٢].

وقد تنوعت الشخصيات والأحداث التاريخية التي كثر استدعاؤها في شعر ابن قلاقس بين شخصيات الأنبياء والملوك والخلفاء والأمراء والوزراء مما استدعى الإشارة إلى هذا المصدر المهم من مصادره التراثية ، حيث يضم ديوانه بين دفتيه إشارات إلى عدد من القادة الذين خلدهم التاريخ كالاسكندر وتبّع وصلاح الدين والخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والنعمان بن المنذر وخالد بن الوليد وكسري وساسان والبرامكة وغيرهم كثير ،

ففي قصيدته التي يمدح بها القاضي سعيد بن خليف يقول مشيرا إلى كسرى وقيصر :

---

(١) يراجع : ديوان ابن قلاقس ٢٣ وما بعدها.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية د. علي عشري زايد دار الفكر العربي ١٩٩٧، ١٢٠

وبنيتُها قصرا سقيتُ براحتي ** كسرى أنو شروان فيه وقيصرا [١]

ويقول أيضا :

ومثلث الأضلاع أعيا سلاسة ** من قبل رسطاليس والاسكندرا [٢]

ويقول مادحا الشيخ ياسر بن بلال :

ولو أدركت تبع مال فخرا ** إلى التقديم عندك باتباع [٣]

ويقول مخاطبا أبا الحسن بن فاتح ومشيرا إلى الملك النعمان بن المنذر وزياد بن أبيه :

بأرض نعمة النعمان فيها ** تزاد لمن يقصر عن زياد[٤]

ويقول مادحا أبا الفياض :

وأنت الذي أبرمت من آل هاشم ** قوى دولة حلت عراها البرامك

ومثلك حامي همة وأئمة ** لها الملأ الأعلى حمي والملائك[٥]

وفي البيت دلالة على الوعي بحقائق التاريخ وأثر تزايد النفوذ الأجنبي في إضعاف الخلافة الاسلامية ، هذا ويضم الديوان إشارات إلي الأنبياء والرسل والأمم السابقة فضلا عن الأبطال والقواد والخلفاء والوزراء مما يدل علي إلمام الشاعر بكثير من أحداث التاريخ الانساني وقدرته علي استدعائها للتعبير عن تجربته الشعرية مما أضفى عليها أصالة وعمقا ، فضلا عما يتسم به هذا المسلك من الربط بين الماضي المجيد والحاضر العتيد .

---

(١) ديوان ابن قلاقس ١٠٦

(٢) الديوان ١٠٦

(٣) السابق ١٨٠ .

(٤) الديوان ٢٣٤.

(٥) السابق ٣٨٠ .

ثالثا : المصادر اللغوية والأدبية :

من بدائه الأمور أن يكون المصدر اللغوي والأدبي هو أقرب المصادر إلى نفس ابن قلاقس وأوضحها أثرا في شعره ، تقول الدكتورة سهام الفريح (والذي نلاحظه في شعر ابن قلاقس اتصاله الوثيق بتراثه القديم ، فحين نقرأ شعره لا نتعرف على ثقافته وطريقته في استخدام هذا التراث فحسب بل يجعلنا نتعرف علي نظرة شعراء العصر لهذا التراث)٠[١]

والمتأمل في ديوان الشاعر تتبدى له طرائق السابقين من الشعراء بل إنك لترى صورة ماثلة لكل من أبي تمام في ولوعه بالمحسنات البديعية ، والبحتري في شغفه بالوصف وعنايته بالإيقاع ، وأبي نواس في كلفه بالخمر وبراعته في وصف مجالسها وكؤوسها وأثرها في شاربيها ، أضف إلي ذلك إشاراته البارعة إلى رموز الثقافة وأساطين البيان أمثال قس بن ساعدة وامريء القيس زهير والمعري ومهيار والمتنبي وجرير، فضلا عن سيبويه والمبرد والجاحظ والقاضي الفاضل وغيرهم كثير من الأدباء والنقاد والشعراء والخطباء ٠

يضاف إلى ما سبق من أدلة تؤكد حرص ابن قلاقس على ترسم خطي السابقين استعماله للمعجم القديم والتراكيب القوية والعبارات الجزلة والصور التراثية والتمسك بالبناء الفني للقصيدة القديمة التي تبدأ بالغزل أو الوقوف علي الأطلال ثم الانتقال إلى وصف الرحلة التي قطعها الشاعر للوصول إلى الممدوح ثم الخلوص إلى الغرض الأصلي وهو المدح الذي استأثر بالأعم الأغلب من قصائده واقتدر علي الوفاء

(١) مقدمة الديوان ١٦.

بما يتصف به الممدوحون من أوصاف إيجابية وصفات تسهم في رسم المثل الأعلى للعربي القديم ، وسأعرض في الصفحات التاليـــة نمـــاذج متنوعة تؤكد الاتصال الوثيق بين الشاعر والتراث ، وتثبت بما لا يدع مجالا لأدنى شك روح الانتماء للأدب العربي في عصـــوره الزاهيـــة ورغبة الشاعر في تمثله والنسج علي منواله في براعة واقتدار ٠

المبحث الأول

استدعاء النص التراثي

يمثل التراث الركيزة الأساسية والمنطلق الأصيل للحضارات الإنسانية ، ولا غرابة فهو جوهرها وعنوان اعتزازها بذاتيتها وهويتها في ماضيها وحاضرها، وكثيرا ما كان التراث الثقافي للأمم منبعا للإلهام ومصدرًا للإبداع ينهل منه أدباؤها وشعراؤها لتأخذ إبداعاتهم موقعها وتتحول هي ذاتها تراثا يربط حاضر الأمة بماضيها ، ويأتي التراث العربي بكل مكوناته الدينية واللغوية والأدبية في طليعة الروافد التي ترفد الآداب والفنون في كل العصور ،

والنص التراثي في شعر ابن قلاقس قد يكون نصا قرآنيا أو حديثا نبويا أو تعبيرا أدبيا يستدعيه الشاعر للتعبير عن جانب من جوانب رؤيته الشعرية على النحو التالي :

أولا : استدعاء النص الديني

ففي مواضع كثيرة من ديوان ينطلق ابن قلاقس من النص القرآني الذي وعاه منذ طفولته مستعينا بما يحمله من ظلال وإيحاءات للتعبير عما يكتنفه من مشاعر وأحاسيس ، وما ينقل رؤيته للمتلقي في وضوح وجلاء ، ومن ذلك قوله مادحا الحافظ السلفي :

هذي النجوم وأنت من إخوانها ** بجميع ما نصبته لك تشهد [1]

كم فيك عن بلقيس من نبأ فهل ** قلبي سليمان وطرفي الهدهد

ففي البيت الثاني يستدعي الشاعر إحدى القصص القرآنية الباهرة وهي قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ ، وتراه يفيد مما رسخ في أذهان المسلمين من صفات العلم والذكاء التي اتصف بها

(١) الديوان ٤١٠.

سيدنا سليمان ، بالإضافة إلى صفات الأمانة والفطنة التي اتصف بها الهدهد فضلا عما اتصفت به تلك الملكة من الحكمة ورجاحة العقل ، والشاعر يستدعي تلك اللوحة البديعة من لوحات البيان القرآني ليخلع على ممدوحه الأثير وصديقه الوفي الحافظ السلفي روائع الصفات وجميل الأفعال ، ولا يخلو السياق من الاعتداد بالنفس والفخر بالملكات حيث ادعى الشاعر لنفسه قلبا كقلب النبي وطرفا كطرف الهدهد للتنبؤ بما ينطوي عليه صدر الممدوح من أمارات النجابة وصفاء الرؤية ورسوخ القدم .

وفي إحدى روائعه يقول مصورا إحدى رحلاته البحرية في استدعاء بارع لبعض النصوص القرآنية:

أقلعتُ والبحر قد لانت شكائمه ** جدا وأقلع عن موج وإزباد

فعاد – لا عاد – ذا ريح مدمرة ** كأنها أخت تلك الريح في عاد (١)

فالشاعر يصور حاله بين الأمواج الهادرة والأمواه العاتية والرياح الهوجاء مستدعيا تلك الريح التي أهلكت قوم عاد فغادرتهم أشلاء ممزقة وأجسادا بالية ، ولقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قوله سبحانه ﴿ ... بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ (٢) .

ويمضي الشاعر في إبحاره كما يستمر في استدعائه للنصوص القرآنية فيقول واصفا السفينة :

(١) الديوان ١٥٣

(٢) سورة الأحقاف الآيتان ٢٤ ، ٢٥

تعلو فلولا كتاب الله صح لنا ** أن السماوات منها ذات أعماد

وإنما نحن في أحشاء جارية ** كأنما حملت منا بأولاد [١]

ففي البيت الأول يستدعي الشاعر عددا من الآيات القرآنية الدالة علي المقدرة الإلهية التي تجلت في رفع السماوات بغير عمد كقوله سبحانه : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى علي العرش ﴾ [٢] إذ لولا تلك الأدلة الواضحة والحجج الساطعة لتسرب إلى أذهان البشر أن تلك السفينة إنما هي أحد الأعمدة التي وكل إليها رفع السماء عن الأرض لفرط ضخامتها وارتفاعها ، وفي البيت الثاني يصور الشاعر تلك السفينة الضخمة في صورة مألوفة وهي صورة الأم التي تحمل أجنتها بين أحشائها ، ولقد اختار لها هذا الوصف المستمد من آي القرآن الكريم (جارية) حيث يقول سبحانه : ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ [٣] .

وفي القصيدة نفسها يصور الشاعر أصوات المستغيثين وصرخات المرافقين في تلك السفينة المضطربة في صورة من الهلع والتفجع فيقول:

يا إخوتي ولنا من ودّنا نسبعلى تباين آباء وأجداد**

نقرا حروف التهجي عن أواخرهاونحن نخبط منها في أبي جاد**

ولا تلاوة إلا ما نكررهمن مبتدأ النحل أو من منتهي صاد**[٤]

فهؤلاء البؤساء قد غدوا في مواجهة الموت إخوة متحابين تجمعهم وحدة الموقف والمصير برغم تباعد الأنساب واختلاف

(١) الديوان ١٥٤

(٢) سورة الرعد الآية ٢

(٣) الرحمن الآية ٢٤

(٤) الديوان ١٥٤.

اللهجات، ولقد صورهم الشاعر في حالة من الذعر بحيث تسرب من أذهانهم كل ما فقهوه من علوم ومعارف ، بل إن حروف الهجاء قد تلاشت من العقول والألسنة ، وليس هذا فحسب وإنما كان جلّ ما تكرر علي ألسنتهم لا يعدو قول الله سبحانه في أول سورة النحل ﴿ أتي أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقوله سبحانه في ختام سورة ص : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ، والحق أن الشاعر نجح في تصوير تلك اللحظات الحاسمة وهذا الموقف العصيب وكان استدعاء النص القرآني هو الركيزة الأساسية لهذا التصوير البارع والوصف الدقيق .

ومن نماذج استدعاء النص القرآني أيضا قوله مادحا ابن خليف ومهنئا إياه بعيد الفطر :

ولرب ربة حانة حنت إلى ** أدبي ، وكان كما تري مشهورا
بعثت من الصهباء لي ياقوتة ** قد كللتها لؤلؤا منثورا
فقبستها نارا يضيئ لهيبها ** بيد المزاج على الزجاجة نورا [1]

فالشاعر في سياق وصفه للخمر ــ الذي يمثل إحدى مكونات قصائده المدحية ــ يصور فتاة الحانة وقد راعتها أشعاره وتاقت نفسها إلى بيانه الأخاذ فأهدته كأسا هي أشبه بالياقوت في بريقه وفتنته ، بيد أن شاعرنا لم يجد وصفا يجلي صورة الكأس أفضل من هذا الوصف القرآني البديع ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤ منثورا ﴾ [2] ومن البين أن هذا التصوير القرآني كان فيه الوفاء بما في

(١) الديوان ١٦٠

(٢) سورة الإنسان الآية ١٩

نفس الشاعر من معاني الجمال والبهجة التي تتجلى في تلك الكأس المتلألئة ، لذا فإنه لم يجد ردا علي تلك الهدية سوى قلبه الذي استحال شعلة من نار الشوق وجمرة من لهيب الحب والغرام ، ولا يخفي الأثر القرآني في البيت الأخير أيضا سواء في ذلك قبسة النار أم النور الذي يطل من تلك الزجاجة اللامعة فاستحال نورا على نور ٠

وفي النموذج التالي يقتبس الشاعر بعض آية من القرآن الكريم إذ يقول وقد عيب شيء من أفعاله :

أيها الحاكم بالظن ** وما بالظن حكم
لا تسم خلّك خسفا ** فهو عن ما تسم يسمو
أو ليس الله حقا ** قال : بعض الظن إثم [١]

فالشاعر حين سيم خسفا واتهم ظلما لم يجد ما يدفع به عن نفسه هذا الاتهام البغيض أفضل من تلك الآية القرآنية الجامعة : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ [٢].

ومن بديع قصائده أيضا قوله مادحا ياسر بن بلال :

صاحبتُ في سفري لك الآمالا ** فأعدتني وأعدتها أموالا
وهتفت باسمك وهو فأل صادق ** فوجدته في راحتيك نوالا
ودعوت منك لدفع عسري ياسرا ** ولدفع غلتي الحرور بلالا
وعجبت للأسماء كيف تصرفت ** بغرائب من نحوها أفعالا
وأمَا ووجهك إنه الفلق الذي ** منذ اهتديت به أمنت ضلالا[٣]

(١) الديوان ١٢٨ .
(٢) سورة الحجرات الآية ١٢ .
(٣) الديوان ٢١٠ .

والشاعر وإن لم يعمد إلى الاقتباس الصريح للنص القرآني لكنه لم يعدم الاستدعاء لهذا النص الكريم وتوظيفه توظيفا فنيا بارعا لصياغة هذه اللوحة الإنسانية الراقية التي تحمل في طياتها كثيرا من صفات النبل والكرم ، وتعبر عن مشاعر الامتنان لهذا الممدوح الذي كان له من اسمه (ياسر) واسم أبيه (بلال) أوفى حظ وأوفر نصيب ، والشاعر في هذا الإطار يستدعي كثيرا من ألفاظ القرآن ومعانيه وحسبي أن اشير إلى كلمات : (العسر ، اليسر ، الحرور ، الفلق ، الهدى ، الضلال) وكلها تدل دلالة واضحة على الأثر القرآني في شعر ابن قلاقس وتؤكد قدرته على الامتياح من ينابيعه الصافية والنهل من معينه الفياض .

ومن أهاجيه قوله في الشريف الناظر مستدعيا إحدى سور القرآن الكريم:

لو كنت من مضر ولست لها ** ما كان منها سيد العرب

لا ترم هاشمها بمنقصة ** تدع الفضيلة في أبي لهب

لقد احتملت مخازيا عذرت ** من أجلها حمّالة الحطب [1]

وهنا يسلب المهجو شرف الانتساب إلى قبيلة مضر العربية الباذخة التي ينتسب إليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يلقنه درسا في احترام الأنساب وتوقير الشرفاء وتعظيم الأماجد ، فالمرء حين يرمي شريفا بمنقصة إنما يضفي على الوضيع عزا ورفعة ، والمهم أن الشاعر في هذه الأبيات أراد أن يحشد للمهجو صفات الخزي والعار

(١) الديوان ٢١٧

والذلة والهوان ولم تكن لتتحقق له هذه الغاية إلا باستدعاء سورة المسد وما فيها من أوصاف الخزي والمهانة التي ستظل ملتصقة بأبي لهب وزوجه أبد الآبدين ودهر الداهرين ﴿ وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ (١).

ويقول في إطار الغزل :

براني هوى ظبي غرير مهفهف ** كبدر الدجى بل وجهه يخجل البدرا

نذرت إذا ما زار في النوم ** خيال له صوما ولا أخلف النذرا (٢)

فالشاعر ــ وهو الصب المستهام الذي كاد يهلكه العشق ويرديه الجوى ــ قد بات أسيرا لهذا الجمال النادر وصار أقصى أمانيه أن يتراءى له خيال محبوبته حال نومه ، ثم يلجأ لاستدعاء النص القرآني حيث يقول الله عز وجل في سورة مريم ﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيًّا ﴾(٣) ، ومن صور استدعاء النص القرآني قوله مادحا بعض أمراء الدولة المصرية :

وقفْ أبثك ما لان الحديد له ** فإن صدقتُ فقل : هل صرتَ داودا (٤)

فما يحمله ابن قلاقس من الشوق وما يختلج بين جوانحه من مشاعر تكاد تذيب الحديد من فرط توهجها وهو معني في غاية الرقة والعذوبة توسل الشاعر إلى إبرازه بطريق الاستدعاء للآية القرآنية التي تدلنا علي مظهر من مظاهر العظمة الإلهية حيث يقول الله عز وجل :

---

(١) سورة المسد

(٢) الديوان ٣٠٤

(٣) سورة مريم الآية ٢٦

(٤) الديوان ٣٩٧

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد ﴾ (١) .

وقال يمدح أبا القاسم عبدالرحمن بن الحباب ويعرض بالمهذب عبدالله بن يوسف الشاعر :

أشكو إليك دعيّ شعري ماله ** حظي من الإصدار والإيراد

لولاك مزقت الأهاجي عرضه ** مني بألسنة لديّ حداد (٢)

والشاعر في مقام التهديد والوعيد يستدعي مقطعا من الآية القرآنية التي منها قوله سبحانه عن المنافقين وتربصهم بالنبي وصحبه ﴿ .. فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد.. الآية ﴾(٣)، وما أروع التناسب بين مقام الهجاء وما يكتنفه من الغضب والتهديد وبين النص المستدعى الذي يصم أهل النفاق بأبشع الأوصاف وأكثرها قبحا ، وهذا يدل على وعي الشاعر بمعاني القرآن الكريم وبراعته في توظيف النص القرآني بحسب ما يتطلب السياق وما يقتضيه المقام.

ويتصل باستدعاء النص القرآني استدعاء الشاعر للحديث النبوي ، وقد سبقت الإشارة إلى آصرة الصداقة بين الشاعر وبين عدد من علماء الحديث في عصره وفي مقدمتهم الحافظ السلفي ، لذا نراه كثيرا ما يعمد إلى استدعاء نصوص من الحديث النبوي فضلا عما شاع في أشعاره بعامة من إشارات إلى بعض المصطلحات المرتبطة بهذا العلم الشريف

(١) سبأ الآية ١٠

(٢) الديوان ٤١٤

(٣) الأحزاب الآية١٩.

، ففي قصيدته التي يهنيء فيها الأميرين محمدا وأبا السعود ولدي عمران بن سبأ صاحب عدن بعيد النحر يقول :

لكم التقدم بالتأخر بعدهم ** كم آخر تلقاه وهو الأول

أو ليس ساد الأنبياء جميعهم ** وأتى أخيرهم النبي المرسل

كل الزمان بكم ضحوك ** تندى معاطفه أغر محجل

فالمخاطبون – وهم أمراء وأبناء أمير – إنما هم سادة البشر والمقدمون على جميع الملوك وسائر الأمراء برغم تأخر زمانهم ، ويستدل على ذلك بخاتم الأنبياء وسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي البيت الثالث يصور عهودهم الميمونة في صورة الزمن الضحوك تارة والمؤمن الذي يشرق وجهه بنور الإيمان وحلاوة اليقين تارة أخرى ، وفي هذا استدعاء للوصف النبوي والتكريم الإلهي لأمة محمد حين يمتازون بين الخلائق في مشهد القيامة بكونهم (غرًّا محجلين) من آثار الوضوء وبهاء الطاعة ونور الإيمان .

ويقول متغزلا في سياق مدح الأمير نجم الدين :

نضت البراقع عن رياض ** لم تحتكم فيها يد الأمطار

ورنت إليّ بطرف ريم ** فرنا الرقيب بطرف ليث

كيف السبيل إلى بدائع جنة ** حفت لطالب نيلها بالنار[٢]

والأبيات تصور الجمال الأنثوي الفتان في صورة محببة وتفنن بديعي آسر يجمع بين المفارقة والمشاكلة فضلا عن الاستعارة والتشبيه،

(١) الديوان ١٩٨

(٢) الديوان ٢٤٨

ثم يتوج هذا كله باستدعاء الأثر النبوي (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ليؤكد أننا أمام صنوف من الجمال والفتنة التي لا يظفر بها إلا من غالب هواه وكبح جماح نفسه وصرفها عن التردي في أودية الغواية والوقوع في إسار الشهوات ، وقوله يمدح الفقيه الإمام الحافظ السلفي ويهنئه بعشر ذي الحجة :

وإن روى الأخبار من ** مرسلها والمسند

فاصغ إليه والتقط ** من درها المنضد

وقل لقد سمعتها ** من فلق محمدي [1]

فألفاظ : (المرسل) و (المسند) إنما هي ألفاظ تتعلق بعلم الحديث ، وفي الأبيات ثناء على الإمام الحافظ يبلغ به درجة عالية من الأمانة والثقة إذ يكاد سامعه يظن أنه يتلقى الحديث من فم النبي صلي الله عليه وسلم ٠

وكثيرا ما نجد هذه المصطلحات مثبوثة في ثنايا أشعاره ، ومن ذلك قوله يمدح الإمام الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي أيضا :

إمام لقيت الدّهر أدهم دونه ** فألبسته وصف الأغر المحجل

أقام به الله الشريعة فاعتلت ** دعائمها فوق السماك وتعتلي

يفسر من ألفاظها كل مشكل ** ويفتح من أعواصها كل مقفل

وما كان لولا أحمد دين أحمد ** ليدرى صحيح سالم من معلل

ولا عرفت حفاظه بين مسند ** يعنعنه رفعا ولا بين مرسل[2]

---

(١) السابق ٤٠١.

(٢) الديوان ٤٩٧.

(٢) الاقتباس هو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث على وجه لا يكون فيه إشعار بأنه من القرآن أو الحديث ، أما التضمين فهو أن يدخل الشاعر في أبياته بيتاً أو أبياتاً مشهورة وكأنه

والأبيات تدل دلالة قاطعة على الأثر القوي الذي تركته صحبة الشيخ المحدث في نفس شاعرنا وهو أثر جعله على دراية تامة بدرجات الحديث والمسند منه والمرسل وصحيح النسبة وغيره ، فضلا عما يتخلل السياق من علوم ومعارف وعبارات تتعلق بالحديث النبوي الشريف .

ثانيا : استدعاء النص الشعري

والمقصود باستدعاء النص الشعري استلهام ابن قلاقس للأبيات والقصائد التي نظمها الشعراء السابقون ، والتواصل الإيجابي مع ديوان الشعر القديم على امتداد عصوره ، والإفادة من هذا المسلك الفني البارع في نقل تجربته والتعبير عن رؤيته ، وهذا الاستدعاء تارة يكون ظاهرا فيكون أقرب إلى الاقتباس والتضمين وتارة يكون لا شعوريا أو مستترا فيكون أقرب إلى التناص[1] ، وفيما يلي عرض لبعض النماذج التي تؤكد هذه الرؤية وتدعم هذا الطرح ، ومن ذلك قوله في مديح أمراء صقلية مبتدئا بالوصف :

متي تنور آفاق المنارة لي ** بكوكب في ظلام الليل وقّاد

وألحظ الشرفات البيضِ ** كالبيض مشرفة في هام

وأستجد مِن الباب القديم ** عن الكنيسة فيه جل أسنادي

يستشهد بها، وعادة ما يضع ما ضمن بين قوسين، كما أنه قد يضمن شعره الأمثال أو الحكم السائرة ليعطيه رونقاً وقوة ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط الثانية ١٩٩٧ص ٣٢ التناص : تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة ، ينظر : تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص د. محمد مفتاح المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط الثالثة ١٩٩٢ ،١٢١.

بحيث أنشد آثارا وأنشـــدها ** فيبلغ العذر نشداني وإنشادي

(القصر فالنخـــل فالجمّـــاء ** فالأثل فالقصـــبات الخضـــر

عليّ أروح وأغدو فـــي ** كمـــا عهـــدت سقـــــاهـــــا

متي تعود ديار الظالمين ** والبين يطلبهم بالماء والـــزاد[1]

والشاعر في غربته تستعر في نفسه مشاعر الحنين إلى الوطن ولواعج الشوق إلى مرابع الطفولة والصبا فيستدعي موقف أبي قطيفـــه الذي نفاه ابن الزبير من المدينة إلى دمشق حيث كتب قصيدته التي تعبر عن الحنين والشوق ومما جاء فيها :

القصـــر فالنخـــل فالجمّـــاء ** أشهى إلى القلب من أبواب

وفي الأبيات من معاني الشوق والحنين ما يفتك بالقلوب لا سيما قلوب المتغربين عن أوطانهم حين تهفو أرواحهم إلـــى تلـــك المعـــالم المحببة ، ولا يقتصر الاستدعاء هنا على مجرد التضمين لهذا الشـــطر من أبيات الشاعر القديم وإنما يستعير ابن قلاقس شعوره الجارف وهو يستشرف لحظات اللقاء وساعات المناجاة ويتطلع إلى تلـــك المنـــارات المضيئة والشرفات العالية ويستبدل بالكنائس والمعابد أبواب المســـاجد وقباب المآذن التي تملأ القلوب بالراحة وتسكب فيها من الســـكينة مـــا يخفف آلام الاغتراب وأحزان الفراق ٠

وقوله في مدح القاضي سعيد بن خليف:

أبني خليف أنتم خلـــف العـــلا ** وكفـــى بـــذلك نســـبة أو مفخـــرا

---

(١) الديوان ١٥٤.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي دار صادر بيروت ط الثانية ١٩٩٥الجزء الثاني ١٥٩.

لله مجـــدكم الرفيـــع فإنـــه ** بلغ السماك وفوق ذلك مظهرا [١]

فالشاعر في إطار المدح لهؤلاء الأقوام يستدعي البيت المشهور للنابغة الجعدي الذي أنشده بين يدي النبي صلي الله عليه وسلم :

بلغنا السماء نجدة وتكرمـــا ** وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٢]

وهي محاولة لإضفاء الصبغة الإسلامية علي المعاني المدحية وبيان أن الانتساب للإسلام هو خير ما يفتخر به المسلم في كل زمان ومكان.

وقوله مستعطفا ابن خليف أيضا :

رفعت كفي أستجديك مغفـــرة ** فاسمح بها يا شقيق العارض الهتن[٣]

وما هززتك إلا بعد مخبـــرة ** بـــأن كفـــي هـــزت نبعـــة الـــيمن

وفي البيت الأول استدعاء لبيت المتنبي في المدح حيث يقول :

العارض الهتن بن العارض ** ن العارض الهتن ابن العارض الهتن[٤]

وفيها يضفي علي ممدوحه كثيرا مـــن صـــفات العفـــو والكـــرم والسخاء والجود لتكون حاديا إلى العفو عن الشـــاعر والتجـــاوز عـــن إساءته لا سيما وقد صور نفسه في حال من التذلل والمسكنة أمام هـــذا الطوفان الباذخ من العطاء المادي والمعنوي ، ويتصل بذلك قوله فـــي معرض المديح لياسر بن بلال :

قربا مربط الصبابة منـــي ** شاب رشدي بهم وشب ضلالي [٥]

---

(١) الديوان ١٢٢

(٢) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي مؤسسة الرسالة الجزء الثالث ١٧٨.

(٣) الديوان ١٢٢ .

(٤) شرح ديوان المتنبي ٢٥٢.

وهو استدعاء لأبيات الحارث بن عباد التي نظمها عند مقتل ولده بجير علي يد التغلبيين وكان أبوه قد عرض ابنه وفلذة كبده فداء لمقتل كليب تجنبا لإراقة الدماء بين بكر وتغلب ، ومما قاله :

قربا مربط النعامة منـــي ** شاب رأسي وأنكرتنـــي العـــوالي

قربا مربط النعامة منـــي ** ليس قلبي عن القتـــال بســـال[1]

وشاعرنا يستدعي عبارات من تلك الأبيات المشهورة للدلالة علي الميل إلى الصبابة والرغبة في الوفاء بحاجات النفس التواقة إلى التمتع بملذات الحياه وتساقي الهوى من كؤوس الصبا ، وما أبدع قوله (شاب رشدي بهم وشب ضلالي) فهو يعبر عما يصطرع فـــي نفســـه مـــن رغبات وأهواء ، واستعلاء تلك الرغبات الجامحة على دواعي الثبـــات والاتزان والتعقل ٠

وما أبدع قوله في مطلع قصيدته التي يمدح بها الشيخ ياسر بـــن بلال ويذكر عودته إليه بعد رحيله عنه :

صدرنا وقد نادى الســـماح بنـــا ** فعدنا إلى مغناك والعود أحمـــد [2]

وفيه تضمين لعبارة وردت في بيت الحكـــم بـــن أبـــي الصـــلت وصارت مثلا:

العود أحمد والأيام ضامنة ** عقبى النجاح ووعد الله ينتظر [3]

---

(١) الديوان ١٢٢

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية ١٩٣٥الجزء الثامن ١٤٤.

(٢) الديوان ٢٦٠

(٣) ديوانه ٦٦

(٢)الديوان ٢٦٢.

ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم الشنتمري تحقيق درية الخطيب ولطفي السقال ط الثانية المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت د ت ٥٨.

والحق أن ابن قلاقس نجح في التوظيف الفني لهذه الجملة التراثية البارعة للتعبير عن الفرحة الغامرة بالعودة الميمونة إلى هذا الممدوح الذي أضحى مثلا للكرم ورمزا للعطاء والجود .

ثم يعرّج ابن قلاقس على شاعر العربية الفذ أبي الطيب المتنبي مستدعيا مطلعه المشهور لكل امرئ من دهره ما تعودا ..... البيت ، فيقول في إطار مدح ياسر بن بلال :

ألا إنما كسب المكارم ** وكل امرئ يجري على ما يعود[١]

ولست أبالغ حين أزعم أن الشاعر هنا لم يقتصر على مجرد التضمين لهذه العبارة المحددة أو المعني القريب – برغم براعته وقوته في الدلالة علي مكارم الأخلاق وجميل الصفات – لكنه يومئ إلى ما حشده المتنبي من روائع الصفات لممدوحه الأثير سيف الدولة الحمداني رغبة في خلع نظائرها على ياسر بن بلال الذي بالغ في إكرام شاعرنا وأفاض عليه من العطايا والهبات مثل ما أفاض سيف الدولة على أبي الطيب ، وتلك غاية لا يفي بها سوى هذا الاستدعاء الفني البارع للنص الشعري القديم .وفي القصيدة ذاتها يستدعي الشاعر شطرا من بيت طرفة المشهور :

ستبدي لك الأيام ما كنت ** ويأتيك بالأخبار من لم تزود[٢]

حيث يقول :

وقد تنطق الأفعال والفم ** ويأتيك بالأخبار من لا تزود[٣]

أراد الشاعر أن يلفت الأنظار إلى تلك الفعال المحمودة التي أتى بها الممدوح دون انتظار مدح أو سعي إلى ثناء وتمجيد هذا فضلا عما

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية ١٩٣٥الجزء الثامن ١٤٤.

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية ١٩٣٥الجزء الثامن ١٤٤.

تفد به الأخبار من أمجاد وما يرقبه محبوه من الفضل والعطاء على مرّ الزمان ٠

واستمرارا للنهل من معين التراث الشعري الذي لا ينضب ، ونبعه الذي يفيض بالعطاء على مرّ العصور يستدعي ابن قلاقس شعر أحد نظرائه من شعراء العربية الذين برعوا في الوصف وأجادوا التصوير مع العناية بالإيقاع الموسيقي الأخاذ ألا وهو أبو عبادة البحتري الذي كان بيته المشهور في وصف الربيع ملهما لشاعرنا في التعبير عن سعادته الغامرة إذ يهنيء الفقيه الحافظ السلفي ببناء الملك الصالح مدرسة الأسكندرية :

بك استبشر الشهر الأصم تشوقا ** للقياك حتى كاد أن يتكلما (١)

وهو مأخوذ من قول البحتري :

أتاك الربيع الطلق يختال ** من الحسن حتى كاد أن يتكلما (٢)

ولا يعدم ابن قلاقس بعض ملامح الإجادة وأمارات الشاعرية برغم الأثر القوي لأبي عبادة البحتري في شعره بعامة وفي هذا الموضع بخاصة ، فتراه يخلع الحياة على الشهور والأيام وهي من المعاني الذهنية المجردة فيصفها بما يوصف به الأحياء بخلاف الربيع الذي تدركه الحواس وتراه العين فتستجلي محاسنه بسهولة ويسر .

ويقول عن الحافظ السلفي أيضا :

حسدته ذوو الرياسة طرا ** وكذا كل فاضل محسود (٣)

---

(١) الديوان ٢٩٨

(٢) ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي دار المعارف الطبعة الثالثة ٧٧

(٣) الديوان ٣٠٠

(٢) شعر مروان بن أبي حفصة جمع وتحقيق دكتور حسين عطوان دار المعارف ط الثالثة سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٩ ، ٥٦

وهو مأخوذ من قول مروان بن أبي حفصة :

ما ضرني حسد اللئام ولم ** ذو الفضل يحسده ذوو التقصير[٢]

وهو من المعاني التي يدركها كثير من الناس وتعارف عليها العامة لا سيما قد ورد في بعض الآثار (استعينوا علي قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود) .

ويقول ابن قلاقس في مدح الفقيه النفيس :

قال لي صحبي لما سمالي ** إن في سير المطي النجاحا

حثها نحو النفيس المدى ** واطرح كل الأنام اطراحا [١]

وهو يعيد إلي الأذهان قول بشار بن برد :

بكرا صاحبي قبل الهجير ** إن نيل النجاح في التبكير [٢]

وهو استدعاء موفق لما في البيتين من حفز للهمم وشحذ للعزائم وحث على السعي الدؤوب الذي يبث في الحياة حياة متجدده ويدفع المرء دفعا للأخذ بأسباب التفوق والنبوغ .

ولابن قلاقس قصيدة بديعة يمدح بها ياسر بن بلال وزير صاحب عدن يقول في مطلعها :

سافر إذا حاولت قدرا ** سار الهلال فصار بدر

والماء يكسب ما جري ** طيبا ويخبث ما استقرا

وبنقله الدرر النفي ** سة بدلت بالبحر نحرا [٢]

---

(٣) الديوان ٣٨٩ ١٦– ديوان بشار بن برد شرح وتعليق محمد الطاهر بن عاشور لجنة التأليف والنشر ١٩٦٦ ، ٤٤

(٢) الديوان ٤٤١

والقارئ للأبيات لا يستطيع تجاهل نظائرها من شعر الشافعي :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب ** من راحة ، فدع الأوطـــان واغترب
ســـافر تجـــد عوضـــا عمـــن تفارقـــه ** وانصب فإن لذيذ العـيش فـــي النصـــب
إنـــي رأيـــت وقـــوف المـــاء يفســـده ** إن سال طاب وإن لم يجر لـــم يطـــب [1]

وكلتا القصدتين تمثلان دعوة للتنقل أخذا بأســباب الــرزق والســعي المحمود في مناكب الأرض ، وإذا كانت أبيات الشافعي قــد عشــقتها القلوب وتعلقت بها الأسماع على توالي العصور لكونها نبعت من عقل سبر أغوار البشر واستكنه أسرار الحياة واقتدر على التعبير الشــعري اقتداره على العطاء الفقهي ، فإن ابن قلاقس أنفق جل عمره متــرحلا مغتربا ، وأهم من ذلك مقدرته الفنية التي صاغت معارفــه وخبراتــه ومشاعره وأحاسيسه في أبيات تتعشقها القلوب وتطرب لسماعها الآذان ، وحسبنا في الدلالة علي ذلك قوله :

سافر إذا حاولــت قــدرا ** ســـار الهـــلال فصـــار بـــدرا

وقال في مدح الحافظ السلفي :

وما صدني عن ترك حبك فتنة ** بخد كروض أو رضاب كسلسل [2]
ولكن لقول قد محا الشعر رسمه ** (وهل عند رسم دارس بالهون منزلي)

والشطر الأخير مأخوذ من بيت امرئ القيس :

وإن شفائي عبرة مهراقة ** وهل عند رسم دارس مــن معــول

(١) ديوان الإمام الشافعي إعداد وتعليق محمد إبراهيم سليم م ابن سينا ٢٥،٢٦
(٢) السابق ٤٩٦

ويقول أيضا :

هم آل كسرى غير أن تقـــاهم ** نماهم إلى آل النبي المرسل [١]

لهم دور فضل بالفرات فسيحة ** لضيف المعالي لا بدارة جلجـــل

ودارة جلجل اسم للموضع المعروف وهو الذي عناه امرؤ القيس أيضا بقوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ** لا سيما يوم بدارة جلجل [٢]

وفي القصيدة ذاتها يقول ابن قلاقس :

بنو الخاطر العجلان عن كل مشكل ** لها لا بنو العجلان رهط بن مقبل [٢]

وفي هذا البيت إشارة لبيت النجاشي الحارثي الذي يهجو يهجو تميم بن أبي مقبل :

إذا الله عادي أهل لؤم ورقـــة ** فعادي بني العجلان رهط بن مقبـــل[٣]

وفي إطار المباهاة بقصيدته يقول مخاطبا الحافظ السلفي :

خذها مـــن الخـــاطر خطـــارة ** قليلـــــة الناقـــــد لا الناقـــــل

في عَرض الأشعار من حسنها ** ما شـــئته مـــن جـــوهر قابـــل

تنسي العتـــاهي لهـــا قولـــه ** (يا إخوتي إن الهوي قـــاتلي)

ولو حواها لـــم يقـــل ســـائلا ** (ماذا تردون علي السائل) [٣]

---

(١)السابق ٤٩٧

(٢) ديوان امريء القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري مركز زايد للتراث والتاريخ ط الأولى ٢٠٠٠ ص ١٩

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني موقع الوراق ج ١ ،١٢

(٤) السابق ٥٠٢

ولقد ضمن ابن قلاقس أبياته شطرين من قصيدة أبي العتاهية في محبوبته عتبة حيث يقول :

يا إخوتي إن الهوي قاتلي ** فيسروا الأكفان من عاجل

..... ** .....

بسطت كفي نحوكم سائلا ** ماذا تردون على السائل [1]

فهذه القصيدة من فرط أناقتها وحسنها تنسي العاشقين ما هم فيه من الصبابة والجوى ، ولو قدر لأبي العتاهية أن يبدع مثلها لأنسته محبوبته عتبة التي كاد حبها يفتك بعقله وقلبه ويورده موارد الهلاك والردى .

ومما قاله ابن قلاقس يمدح الأميرين محمدا وأبا سعود ولدي الداعي الفاطمي :

رواق مَدّ في يمن فأضحى ** مطلا بالعراق وبالشآم

حماه ياسر ضربا وطعنا ** ومن عز الحمى عز المحامي

فروى كل سافلة بقلب ** وروى كل عالية بهام

وراض جوامح الأيام حتى ** جرت بيديه طيعة اللجام

وأنشد فعله في كل حي ** لقد طالت بهم شعب الخصام

(إذا قالت حذام فصدقوها ** فإن القول ما قالت حذام [2]

فهذي المكارم التي ساقها لممدوحه لا تقبل الشك ، وتلك البطولات التي سطرها التاريخ لأولئك الأماجد لا تحتاج إلى دليل ، ومن ثم فقد ناسب

(١) ديوان أبي العتاهية دار بيروت ١٩٨٦، ٣٨٦

(٢) الديوان ص ٥٣٦

هذا السياق أن يستدعي الشاعر هذا البيت المشهور دون تغيير أو تحوير ليفيد مما رسخ في الأذهان عند سوقه من التأكيد والإثبات .

وفي ختام مدحه الأثير جمال الملك أبا القاسم عبد الرحمن بن الحبـــاب وأخاه القاضي الأشرف السعيد أبا المكارم الحسين ويهنئهما بعيد الفطر:

تقصر عن نعماك أولاد جفنه ** ويقصر عن إدراك شأوي حَسان

فهذا الممدوح في رأي شاعرنا أضحى علما علي الكرم ورمزا للجـــود والعطاء بل لقد بلغ في الفضل حدا يتراجع بإزائه ملوك الغساسنة الذين استأثروا بجل مدائح شاعر الإسلام الأشهر حسان بن ثابت .

المبحث الثاني

استدعاء الشخصيات التراثية

الشخصية التراثية هي ذلك الشخص الذي اكتسب بمواقفه الفكرية والعلمية ومقوماته الخلقية والنفسية وتأثيراته في حياة الأمة ما يضيف إلى ما يحمله تاريخها من فكر وعمل وسلوك وقيم رصيدا مذكورا يسهم في توضيح هويتها بين الأمم ، وذلك يقتضى أن تتوفر فيه الصفات التي تؤهله للمشاركة العلمية في مسيرة الحياة وأن تكون تلك الصفات من التميز والاكتمال على نحو يجعله يعرف بها وتدل عليه ، وأن يتحول في ضمير الناس من الشخص الذات إلى الشخص المثال [1].

ولتوظيف الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر أنماط عديدة وطرائق مختلفة وصور شتى لا يمكن الادعاء بتوفرها في شعر ابن قلاقس لا سيما أن استدعاء الشاعر للشخصيات التراثية لا يتجاوز حد توظيف الشخصية عنصرا في صورة جزئية يناط بها تسليط الضوء على بعد من أبعاد التجربة الشعرية ، واستحضار ملمح من ملامح الشخصية أو قرينة من القرائن الدالة عليها ، لكن هذا الاستدعاء – برغم بساطته – يعد لونا من ألوان الرمز المحبب ومركز إشعاع لعدد من الإيحاءات التي ارتبطت بالشخصية في أذهان المتلقين على مرّ العصور ، وبخاصة أن ابن قلاقس برع في اختيار شخصياته وأحسن توظيفها داخل النص بطريقة تدل على الوعى بحقائق التاريخ والاعتزاز بقيمة التراث والنظر إلى رموزه بعين الإكبار والتعظيم ٠

(١) استدعاء الشخصيات التراثية د. علي عشري زايد ٢١٩

ومن الشخصيات التي كثر استدعاؤها في شعر ابن قلاقس : البعيث وجرير وأبو بكر وعمر وعثمان وقس وسحبان والنعمان بن المنذر وزياد بن أبيه والحاتمي وجرول وأبو تمام والبحتري وزهير وهرم بن سنان ويوشع والبخاري ومسلم وامرؤ القيس وحسان بن ثابت والغريض والأحنف بن قيس والمعري ومهيار والجاحظ والمبرد والشافعي ومالك وسيبويه وأبونواس والخليل وقدامه وابن حنبل ولبيد ويوشع والمسيح وعبدالحميد الكاتب وغيرهم كثير ، ولنتأمل هذا النموذج من قصيدته التي يمدح بها القائد الأجل أبا القاسم بن حمود بن الحجر وأولاده بمدينة صقلية :

مراتب لأبي بكر لها سبق ** كما أبو بكر المخصوص بالسبق
مهمة عمر فيها رأى عمرا ** فضمها عنده الفاروق في فرق
مبسطة يرتقي عثمان هضبتها ** رقي عثمان إلا ساعة الزلق
فضل أبو القاسم المشهور قسمه ** فيهم ، فهم في بهيم الدهر كالبلق
ولم تزل لعلي فيه أو حسنٍ ** فأل علوّ وحسن غير معتلق(١)

والشاعر بعد أن حشد لممدوحه صفات البطولة والكرم نراه يتبع ذلك كله بهذا الاستدعاء لعدد من كبار الصحابة والخلفاء الراشدين وفي طليعتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وبنوه معولا على التشابه في الأسماء تارة ، والتسابق في مضمار المعالي تارة أخرى ، ولا شك أن اقتران اسم الممدوح بهؤلاء الأخيار فيه من رفعة الشأن وتسنم ذرى المعالي ما يجاوز حد الوصف المباشر والمديح التقليدي .

ومن الشخصيات التراثية التي يكثر استدعاؤها في شعر ابن قلا قس شخصية قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب في العصر الجاهلي، ومن ذلك قوله مجيبا الفقيه أبا الحسن بن فاتح عن قصيدة كتب بها إليه:

هو النادي وأنت به أنادى ** فيا مروى الحيا مورى الزناد
لسانك أم سنانك دار فيما ** أراه من الجدال أو الجلاد
يبرز في اطلاع واضطلاع ** وتبرز في اتقاد وانتقاد
وكم لك في الفصاحة من أياد ** ملكت بها الفخار على إياد [1]

وتتجلى براعة ابن قلاقس في حسن تخير الشخصيات بحسب ما يتطلبه السياق ، فلما كان المقام مقام امتداح للفصاحة وإشادة بالمواهب والملكات فقد ناسب ذلك استدعاء الشاعر لهذا الإيادي الذى طبقت شهرته الآفاق فكان مضرب المثل في الاستئثار بملكة القول وامتلاك ناصية البيان ، ولا غرابة فإن قس بن ساعدة قد حظي بمنزلة لم يحظ بها سواه حيث (روى النبي صلى الله عليه وسلم كلامه وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته وهو الذي رواه لقريش وللعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه ، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال) [2]

ومن هذا القبيل أيضا قوله في مدح الحافظ السلفي ومستدعيا طائفة من أرباب البيان العربي :

وفي الآداب قد أضحى وحيدا ** وفي علم الحديث فلا يدانى
وإن ألقى الدروس فلا يجارى ** فدع ذكرى فلان أو فلان

(١) الديوان ٣٣٤ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ١،٥٢

يفسر ما يقول بــلا اكتــرات ** بأفصح ما يكون مــن البيــان
فمن قس ومن سحبان أيضــا ** متى ذكروه في نطــق اللســان
ومن عمرو بن بحر أو ســواه ** لديه في التصــانيف الحســان
وفي نظم القريض فمَن حبيب ** وبشار بن برد وابن هــاني [١]

وأظهر ما في استدعاء الشاعر لتلــك الشخصــيات هــو حســن الاختيار وجمال التوظيف ، يقول الأستاذ أحمد مجاهــد : (يجــب أن ننظر إلى نجاح التوظيف أو فشله فنيا من خلال مدى اندماج الشخصية التراثية داخل بنية النص ومقدار مساهمتها في تعميق دلالته الكلية) [٢]

وهذا ما يتضح من اختيار الشاعر للشخصيات المستدعاة التي تعد مضرب المثل في الفصاحة والبيان وامــتلاك ناصــية الأدب بفنونــه المتنوعة ، سواء في ذلك قس بن ساعدة الذى أضحى علما على الاقتدار الخطابي الفذ ، وسحبان وائل الذى ضرب به المثل فقيل أخطــب مــن سحبان وائل ، أما عمرو بن بحر فهو الجاحظ شيخ المتكلمين وأديــب العربية الأشهر صاحب التصانيف المتنوعة والأيادي البيضــاء علــى الفصحى وعلومها والأدب وفنونه ، وفى الأبيات إشارات إلى عدد من الشعراء الذين أسهموا في إعلاء صروح الشعر ، وأشادوا لهــذا الفــن الخالد بناءه الشامخ ومنهم أبو تمام حبيب بن أوس أشهر شعراء العصر العباسي قاطبة ، بالإضافة إلى الشاعرين الكبيرين بشار به برد وابــن هانيء الأندلسي ٠

(١) الديوان ٣٠٣

(٢) أشكال التناص الشعري الهيئة العامة ٢٠ ص ٨

ومما قاله في ختام مدحه للقاضي الفاضل :

ولى فيك ما استنبطته بقرائحي ** ورب نبات ضمنته نبائث[1]

قوافى لو أن البعيث أتى بها ** لجر جريرا للبعيث البواعث [2]

واستدعاء ابن قلاقس لهذين الشاعرين (جرير والبعيث) يدل على استيعاب تام لما دار بينهما من أهاج وما أسهما فيه من نقائض أحرز فيها جرير انتصارات عديدة على خصومه ، وهنا يزعم شاعرنا أن البعيث لو امتلك براعته وملكاته لبذ جريرا فيما نشب بينهما من نقائض ، وأهم مما سبق وأجدر بالتسجيل براعة ابن قلاقس في حشد الأساليب التي تتسق مع الشخصية المستدعاة ، ذلك أن الممدوح وهو القاضي الفاضل الكاتب المعروف وصاحب ديوان الإنشاء (كان يكثر من استخدام المكونات التراثية في بناء معانيه وتدبيج عباراته، فضلاً عن إكثاره من التقطيع والموازنة والجناس والسجع، واعتماده على التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من فنون الصنعة البديعية) [1] وهذا ما يلحظه القاريء في قول شاعرنا المذكور آنفا : كالجناس بين النبات والنبائث والبعيث والبواعث وجرّ وجريرا ، فضلا عما هو مبثوث في ثنايا القصيدة من سمات التأثر الواضح بين القاضي الفاضل وابن قلاقس .

وفي الأبيات التالية يستدعي الشاعر الحارث بن مضاض الذي كان مضرب المثل في الارتحال وطول الغربة ، ولاشك أن استدعاء ابن

(١) النبائث : آثار الحفر والتراب يستخرج من البئر والنهر

(٢) الديوان ١٧٥

قلاقس لهذه الشخصية يدل علي عمق الصلة بينهما فابن قلاقس أنفق جل عمره المتقاصر في الترحل والاغتراب ، وليس أدل علي ذلك من قوله:

صاح دع كره سر في ** وتغرب كالحارث بن مضاض

وقوله مادحا ياسر بن بلال :

وندى الشيخ ياسر بن بلال ** عوض لي من أنفس الأعواض

غربتي عنده كفتني ممضّا ** من خطوب في غربة من مضاض[١]

والأمثلة كثيرة مبثوثة في الديوان الضخم الذي يحتل شعر الغربة فيه حيزا كبيرا ، وأهم من ذلك هذا الانسجام العجيب والتوحد التام بين الحارث ابن مضاض وابن قلاقس بدرجه تمهد الطريق أمام شعراء ذلك العصر لاتخاذ الشخصية التراثية قناعا أو معادلا موضوعيا يفضي من خلاله الشاعر بكل ما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس .

ومن النماذج التي تدل علي الإلمام بالتراث والاستيعاب التام لجهود العلماء قول ابن قلاقس مخاطبا الأديب أبا بكر العبدي :

فكن صاحبي الحكم في سرقاته فما الخبر المحكي في ذاك بالمحك

ثنى ذكرَه كالخالديَّيْن خالدا قريض سري كالسّر في ظلمة الشك[١]

والبيت الأول يشير إلى إحدى القضايا الأدبية والنقدية وهي قضية السرقات التي حظيت باهتمام أبي علي الحاتمي في كتابه الصاحبي ، لذا ترى ابن قلاقس يوعز إلى ممدوحه بترسم خطى الحاتمي والإبانة عن

(١)(الخالدان هما الأخوان الشاعران المحسنان أبو بكر محمد ، وأبو عثمان سعيد ، الموصليان الخالديان ، من أهل قرية الخالدية ، كانا كفرسي رهان في قوة الذكاء وسرعة النظم وجودته ، يتشاركان في القصيدة الواحدة ، ومحمد هو الأكبر ، قدم دمشق في صحبة سيف الدولة بن حمدان ، وهما من خواص شعرائه ، اشتركا في شيء كثير ، وكان سري الرفاء يهجوهما ويهجوانه) سير أعلام النبلاء الجزء ١٦، ٣٨٧

سرقات الشعراء لأبياته وقصائده ، وفي البيت الثاني إشارة إلى ما ادعاه السري الرفاء على الخالدين من سرقه شعره وشعر غيره فكأن ابن قلاقس وهو في سياق المباهاة بشعره يزعم أن شعره أخمل ذكر المعاصرين له من الشعراء .

وفي مدح ابن قلاقس للحافظ السلفي نراه يحشد أسماء طائفة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء حيث يقول :

في الفقه مثل الشافعي ومالك ** وأبي حنيفة وابن حنبل أحمد
ضاهى البخاري المحدث رتبة ** مع مسلم ومسدد بن مسرهد
وأبو عبادة في القريض وجرول ** لو عاصراه أصبحا كالأعبد[1]

ولاشك ان استحضار الشاعر لهذه الأسماء الذائعة يوجز كثيرا من الأوصاف المباشرة والبراهين التي يستدعيها سياق المدح سواء أقصد به التفقه في الدين أم البراعة في الحفظ أم السبق في مضمار الشعر والأدب ، ويتصل بما سبق استدعاء الشاعر للمعري ومهيار وذلك في إطار الفخر بقصيدته التي منها :

أيها الحافظ الإمام المفدى ** جدت فالمكرمات عنك رواضِ
هاك بكرا كسوتها ثوب فخر ** أي ثوب من سؤدد فضفاض
فغدت تزدري بشعر المعرى ** وبمهيار والشريف البياضي[2]

وفي قصيدته التي يمدح بها القاضي الأشرف أبا المكارم حسن القاضي الوجيه أبى محمد عبدالله الحباب يستدعي شخصية سيبويه العالم النحوي الشهير فيقول :

(١) ٣٠٧
(٢) ٣١٩

نطقت بإعراب المقـــادير مفصـــحا ** فيا سيبويه اخفض بلفظـــك وارفـــع
وجودك لم يعـــدم بيـــان مشـــرع ** وجودك لم يعـــدم مناهـــل مشـــرع
نصبت لما شـــادت تمـــيم بنـــاءه ** من المجد ركن الســـؤدد المترفـــع
فضائل دع حصنا فما زال حـــابس ** يفوق بها مرداس في كل مجمع (١)

ونلحظ هنا أن الشاعر يتخير الشخصيات اللغوية والأدبية حـــين يمتدح الأدباء ويخاطب العلماء ، وفي هذا دليل على مراعاة التناسب في الخطاب والحرص على تقوية الوشيجة بين النص الشـــعرى والمتلقـــي فضلا عن التنوع الثقافي للشاعر وبراعته في ارتياد الآفـــاق المعرفيـــة المختلفة والمنادح الأدبية المتنوعة ، فحين يتصل الأمر بالنحو وعلومه يستدعي سيبويه ، وحين يتطلب الأمر مباهاة بالأمجاد وشداتها يستحضر قبيلة تميم التي تعد من أشرف القبائل العربية ، وحين تظهـــر الحاجـــة للفخر والمباهاة سرعان ما يستدل بالأقرع ابن حـــابس ونظرائـــه مـــن المتعاظمين والمتفاخرين .

وفي مواضع كثيرة من ديوانه يستدعى ابن قلاقس نبي الله يوشع عليه السلام ، ومما قاله مهنئا الحافظ السلفي بإبلاله من مرض وذلك في قصيدته التي مطلعها :

كاد الكمال يعود ربعـــا بلقعـــا ** متى رفعـــت منـــاره فترفعـــا

وفيها يقول :

ونزعت ثوب توعك لا ينثنـــي ** ولبست خلعة صـــحة لـــن تخلعـــا
من بعد أن قال الحوادث إنهـــا ** نزعت ، وظنوا أنها لـــن ترجعـــا
فكأنما كانت وقد عـــادت لـــه ** شمسا وكان لها هنالك يوشـــعا (١)

(١) ٣٦٣

فالشاعر يبدو جزلان مغتبطا بمعافاة صديقه كما اغتبط أتباع يوشع بحبس الشمس له كي يفتح الله على يديه بيت المقدس ، يضاف إلى ذلك ما أثاره الحاسدون من أراجيف توحي بهلاك الشيخ إثر هذا المرض ، ولعل هذا ما ردده المرجفون من استحالة فتح بيت المقدس قبل الغروب ، ولا شك أن استحضار هذه المعاني يبث الأمل ويبعث الطمأنينة وينشر السكينة ويحيي الإيمان ويدفع المرء إلى التعلق بالخالق جل في علاه مهما اشتدت المحن وتقاصرت الأسباب وادلهمت الخطوب.

ويقول في إجابة الفقيه ابن فاتح عن شعر بعث به إليه :

فلو حسان فاز بها لحلى ** بجوهرها قلائده الحسانا

ولو رام ابن هانيء اتصالا ** بصعب مرامها يوما لهانا [٢]

ونلحظ إلحاح الشاعر على استدعاء شخصية شاعر الإسلام الأشهر حسان بن ثابت ، ولا غرابة فهو رائده الذي احتذاه في المدح ، وأستاذه في رسم معالم الفضيلة ، لا سيما الشعر الذي امتدح به حسان ملوك المناذرة والغساسنة قبل الإسلام وكان الباعث عليه التكسب والرغبة إحراز الأموال كما هو الحال عند ابن قلاقس الذي يحتل شعر المدح في ديوانه أهم المراتب وأسمى درجات الإجادة الفنية برغم ما يكتنفه في بعض الأحيان من التقليد وما يبعث عليه من الاستجداء .

وما أجمل قوله مادحا الشيخ السعيد ياسر بن بلال المحمدي :

فيا ياسرا نلنا به الفضل ياسرا ** لنا ووجدنا منه ما ليس يوجد [٣]

---

(١) ٤٦٧

(٢) ٢٣٥

(٣) ٢٦١

دعوت بصوت الجود حي على الندى ** لأنك تروي عن بلال وتسند

فما أجمل الربط بين نداء الكرم الذي أرسله في القبائل ياسر بن بلال وبين النداء الإسلامي الخالد الذى رفعه في العالمين بلال بن رباح فشادت له الأقدار أرفع المنازل وأعلاها قدرا ، وما أروع الاستعانة بالمحسنات البديعية المحببة كالجناس بين ياسر(اسم الممدوح) وياسر (للواسع الفضل) وتلك إحدى الظواهر الفنية التي يتسم بها شعر ابن قلاقس بوجه عام .

وفى النموذج التالي يستدعى الشاعر عددا من رموز التراث العربي وشخصياته المتنوعة لإضفاء هالة من التعظيم والإكبار لممدوحه الأثير الحافظ السلفي ، ومما قاله :

الحافظ الحبر الإما ** م الشافعي المذهب

هو الكريم ابن الكر ** يم الأنجب ابن الأنجب

من حسنه كيوسف ** ونطقه كيعرب

ومن نداه دائما ** يفيض فيض السحب

ومن علت همته ** على السهى والعقرب

ومن غدت ألفاظه ** مشرقة كالكوكب

ومن أقل خادم ** يخدمه كثعلب

ومن إذا ناظر ير ** ضاه الإمام اليثربي

والشـــافعى المرتضـــى ال ** مفضـــــل المطلبـــــي

ولقد نجح ابن قلاقس في رسم الصورة المثلى للحافظ السلفى ، فرفعه إلى مصاف الممدوحين من الأمراء والوجهاء ، وخلدَ ذكره في العالمين كما خلد كبار الشعراء ذكر ممدوحيهم ، ولا غرابة فإن مدحه لم يقتصر على الصفات الحسية من حسن المنظر وبهاء الوجه وجمال الهيئة وإنما أضاف إلى ذلك بلاغة اللسان ، والندى الذى تجود به اليدان، والفضل الذى يعلي مكانته بين الأصدقاء والخلان ، وحسبك برجل ارتضاه كبار الفقهاء وأجازه القراء والعلماء وخدمه رؤوس النحاة والبلغاء .

وفي النموذج التالي يتضح ميل ابن قلاقس إلى استدعاء الشخصيات اللغوية وتتضح عنايته برموز الكتابة والشعر ، يقول في مدح القاضي الفاضل :

بلاغـة جـرت جريـرا ولـم ** تترك خطاما بيد ابن الخطيم

..... ** .....

وقال يا عبد الحميد ادّرع – ** من بعد هذا اليوم ثوب الـذميم

زره تزر سـحبان فـي وائـل ** وانظره تنظر حاجبا في تميم (١)

وفي الأبيات إشارة إلى عدد من مشاهير الكتاب والشعراء كجرير وقيس بن الخطيم وعبد الحميد الكاتب وسحبان وائل وحاجب بن زرارة التميمي الذي كان أعجوبة عصره في معرفة أخبار العرب وأنسابها وأيامها فضلا عن كونه من مشاهير الفصحاء والبلغاء .

(١) الديوان ٥٢٧

ومن بديع مفارقاته وحسن توظيفه للشخصيات المستدعاة قوله يمدح الأمير نور الدين إبراهيم بن شاذي البلوي وبلاده بأعلى الصعيد :

ولو أتاه عبيد في العبيد لما ** أودى به أن ثنى نعماه نعمان

ولو كسا حي عدوان بشاشته ** ما صال بينهم للدهر عدوان

ولو تحمل منه باقل سببا ** ما كان سحّب ذيل النطق سحبان [1]

وفي البيت الأول إشارة إلى عبيد ابن الأبرص وقد وفد على النعمان بن المنذر يوم البؤس فقتله ولو قدر له الوفود على ممدوح ابن قلاقس لكتبت له الحياة الكريمة ، ولو قدر للممدوح الخطو في ربوع عدوان لاتقوا صولة ذي الإصبع العدواني الفاتك ولكانوا في مأمن من بغيه وشره ، ولو أن باقلا وهو الذي يضرب به المثل في العى والفهاهة صادف الممدوح لأعيا باقل سحبان ، وهكذا نجح الشاعر بفعل الاستدعاء البارع للشخصيات التراثية أن يضفى على مدائحه ألوانا من الإبتكار وصنوفا من البراعة التي ترفع الشاعر إلى مصاف الشعراء وأعلى مراتب المادحين على مرّ العصور .

(١) السابق ٥٥٦

المبحث الثالث

استدعاء الخصائص الفنية

أولا : استدعاء المعجم التراثي :

ويقصد بالمعجم التراثي طائفة الألفاظ والتراكيب التي شاع استعمالها في ديوان الشعر القديم ، وهذا المسلك يدل على اعتزاز شاعرنا بكل ما هو عربي ، ووفائه لطرائق القدماء ، وانتمائه للبيئة العربية بكل دقائقها وتفاصيلها ، ورغبته في إضفاء الصبغة التراثية على أشعاره بعامة وشعر المديح بوجه خاص ، ومن نماذج استدعاء المعجم التراثي في شعر ابن قلاقس قوله مادحا الحافظ السلفي مستهلا قصيدته بالغزل الممزوج بوصف الخمر :

أرقصها مطرب الأغاريد ** فاسترقت هزةَ الأماليد
ودب خمر السرى يأذرعها ** فهي على البيد في عرابيد
وغازلتها الصبا بمألكة ** تفجر الماء في الجلاميد
تحمل عن روض عالج خبرا ** تسنده عن ظبائه الغيد
أجرى عليه السحاب دفع شج ** وفرق البرق قلب معمود
فأغرق الريح بين أربعها ** موج وجيف ببحر توخيد
وخيلت ماءهم يبل صدى ** ومورد الآل غير مورود [1]

فالعرابيد والجلاميد والتوخيد والآل والتغنى بريح الصبا والتغزل بالأماليد وغيرها ألفاظ تبدو أكثر شيوعا لدى الشعراء الجاهليين وقد

(١) الديوان ٢٢٥

استدعاها ابن قلاقس لإضفاء لون من الرصانة على قصيدته أكدها بقوله فيما بعد :

وعنده للضيوف نـــار قـــرى ** تعرفها البزل كلمـــا نـــودى

فالقرى الذي يقدم للضيفان والجمال المسنّة كلها مظاهر تراثية تعيد إلى الأذهان صفات الكرم والجود التـــي تـــرددت كثيـــرا لـــدى الشـــعراء الجاهليين.

وقوله في مدح الشيخ الفقيه الإمام الحافظ السلفي أيضا :

عهدي بحيك وهو حي عامر ** قام الرقيب لـــه وقـــام الســـامر

فبوارق الزفرات فيه خوافق ** وسحائب العبرات فيـــه مـــواطر

حيث الحماة من الكماة كأنها ** فوق العتـــاق قســـاور وجـــآزر

وغصون ملدك مثل قدك ميّد ** ومجال طرفك مثل عرفك عـــاطر

فمهند عضب وأسمر عاســـل ** ومفاضة زعف وأجرد ضامر [١]

والشاعر هنا يستدعى كلمات : (العتاق ، والقساور والجآزر والمهنـــد العضب والأسمر العاسل والدروع المفاضة والجواد الضامر) وهو بهذا الصنيع ينقلنا إلى تلك البيئات العربية لإضفاء نوع من الأصالة على تلك المدائح مستعينا بما رسخ في الأذهان من ألفاظها ومعانيها .

ومما قاله أيضا :

ومهمه تصبح المطي به ** ما بين إرقالها إلى الخبب [٢]

(١) الديوان ٢١٢

(٢) السابق ٢٨٢

واستدعاء هذا الاسم من أسماء الصحراء (المهمه) والتعبير عن سير الإبل بالإرقال والخبب إنما هو مسلك قديم يدل على انجـذاب الشـاعر لتراثه واحتذائه لطرائق الأقدمين.

ويقول واصفا إحدى رحلاته مستدعيا بعض اسماء الوحش :

وقد أقطع البيداء والبدر فارس ** له الليل طرف والكواكب خرصان
بمنجرد في الوعر وعلٍ وفي النقا ** عقاب وفي سهل البسيطة سرحان
سرى وكأن الريح ملء حزامه ** بها وكأني فـي مطـاه سـليمان
وأخضر مرهوب الغرار إذا بكى ** فحَاملـه طلـق الأسـرة جـذلان
وأرقط إما نسبة حين ينتمـي ** فصقر وإما نصبه فهو بستان [1]

فاختيار الشاعر لمنجرد الوعر بـدلا مـن الفـرس القـوي والعقـاب والسرحان والحية الرقطاء يدل على انحياز للبيئة العربية بكل مكوناتها من الإنسان والحيوان والوحش وغيرها من المعالم الصـحراوية التـي شاعت في شعر الجاهليين بعامة وشعر الصعاليك بخاصة .

ومما قاله مهنئا الأميرين محـمدا وأبا السعود بعيد النحر :

زرعت به آل الزريع حديقة ** رقّ النبـات لهـا ورق المنهـل
واسـتثبتته لملكهـا فكأنـه ** تهـلان ذو الهضـبات لا يتحلحـل
ووفا لها منه هزبـر خلفـه ** طلس الذئاب مع الـذوابل تعسـل
كالأجدل الغطريف يحمل سرجه ** سامى التليل كما اشرأب الأجدل [2]

(١) ١٩٩

فتهلان هو الجبل المعروف الذى تغنى به الشعراء قديما وصفه الشاعر بأنه (لا يتحلحل) والهزبر والذئاب والأجدل الغطريف (وهو اسم فرس لأبى ذر الغفاري) والأجدل الثاني وهو الصقر وكلها أسماء كثر استعمالها في الشعر القديم .

ومن نماذج الألفاظ التراثية استعمال الشاعر لألفاظ : العيس ، الأينق الرُّسُم حيث يقول في مدح الأمير نجم الدين من مصال :

فالسير حتى تقول العيس من خمر صرنا رسوما وكنا أينقا رُسُما (١)

**

فهذه الألفاظ شاع استعمالها في الشعر الجاهلي للدلالة على بطولة الممدوح الذى يجهد الرواحل في خوض المعارك ، أو أن طلاب عطائه يجهدون رواحلهم للوصول إليه والنهل من معين كرمه الفياض. ومما قيل في مدح القاضي الفاضل قصيدته التي مطلعها :

طرحنا فوق غاربها الزمانا ** فأسلمها العرار إلى الخزامى

ومنها قوله :

تحط به النعائم متأقات ** ترجرج فوق أعناق النعامى

إلى أن عارضتنا فاستربنا ** أكوما نحن ننظر أم إكاما

وقالت والخيام صباح عشر ** لليلتها ألا حي الخياما

فعجنا بالأراك على أراك ** صدحنا في ذوائبه حماما

وملنا للعقيق فقام جسمي ** به يقرا على القلب السلاما

(١) ١٧٠

طرحنا العجز عن أعجاز عيش ** نوشحها على الحزم الحزامـا
ونُوسعها بأيدي الوخد مخضا ** تطير الـريح زبدتـه لغامـا
وتدفع بالسـرى منـه قسـيا ** فتقذف بالنوى منـه سـهاما
ونعمـل كالأهلـة ضـامرات ** لنبلغ فوقها القمـر التمامـا
بباب الفاضل المفضال حطـت ** فأطلقهـا وأقعـدنا وقامـا
تجنبهـا الخـوافي والـذنابى ** وتوردها القوادم والقدامى [1]

والقصيدة منذ استهلها الشاعر بذكر معالم البيئة الصحراوية مـن النبات والحيوان تنبئ عن استدعاء واضح للمعجـم القـديم والألفـاظ التراثية التي تتناسب مع الارتحال الطويل عبر الصحراء الشاسعة إلـى الممدوح على طريقة الجاهليين الذين يحلو لهم الوصف الدقيق للمفـاوز والقفار وما يتجشمه الشاعر من مشقة ترقيقا للقلوب واستجلابا للعواطف واستجداء للأموال والهبات ، وهو النهج الذى ارتضـاه ابـن قلاقـس متخيرا لتحقيق هذه الغاية ألفاظ : العرار والخزامى والنـوق الضـحمة ذات الوخد أي السير السريع إلى غير ذلك من الألفاظ والعبارات ، كما نلحظ حرص ابن قلاقس على ترسم خطى القاضي الفاضل في الولـوع بالمحسنات كالجناس بين النعائم والنعامى والعجز والأعجـاز والحـزم والحزام والفاضل والمفضال والقوادم والقدامى فضلا عن الطباق بـين (أقعدنا) و(قام) وكلها تؤكد رؤية الشاعر أن من تمـام الاسـتدعاء

(١) الديوان ١٧٦
النعائم : من منازل القمر ، متأقات : مملوءة ، النعامى : ريح الجنوب ، الأكوم : النوق الضخمة ، الوخد : السير السريع

للظواهر التراثية هو الاتساق بين النموذج القديم وبين أسلوب الشاعر في تناوله والتعبير عنه ، فحين تدور الأبيات حول القاضي الفاضل نجد الشاعر يستدعي طريقته في الكتابة ويترسم خطوه في التحسين والتزيين، وحين يستدعي شاعرا كالبحتري نراه يتأنق في الوصف ويحتفي بالإيقاع ، وحين يتجه صوب شعر امريء القيس نلمح أجواء من الصخب والتهتك تشيع في عالم القصيد .

ولا يقتصر استدعاء المعجم القديم على بعض القصائد وإنما تنداح دائرته في الديوان بأكمله ولنأخذ مثلا قصيدته العينية التي يمدح بها الحافظ السلفي فهي تذخر بأعداد من الألفاظ والعبارات مثل : بلقعا ، بطن لعلع ، ليتا وأخدعا ، أسود أسقعا ، أمرعا ، بديع الطرتين ، أسماع المصيخين وغيرها كثير [١]

ثانيا المعارضة الشعرية للنموذج القديم :

ويقصد بالمعارضة (أن ينظم شاعر قصيدة في موضوع معين على غرار قصيدة أخرى قالها شاعر متقدم عليه في الزمن ملتزما الوزن والقافية وحركة الروي فضلا عن المضمون بالمتابعة والاحتذاء مجاريا ذلك الشاعر محاولا بلوغ شأوه ثم محاولا التفوق والإبداع) [٢]، وهذا ما يطلق عليه المعارضة التامة نظرا لاتفاق القصيدتين المعارضة والمعارضة في الوزن والقافية والموضوع فإذا فقدت القصيدة واحدا من هذه الأركان الثلاثة فإنها معارضه جزئية أو ناقصة .

---

(١) الديوان ١٨٣

(٢) المعارضات في الشعر الأندلس دراسة نقدية مقارنة يونس تركى سلوم دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ٢٠٠٨، ٤٨ وينظر أيضا : المعارضة في الأدب العربي د. إبراهيم عوضين مطبعة السعادة ط أولى ١٩٨٠، ٨

ومن نماذج المعارضة في شعر ابن قلاقس قصيدته الرائية التي مدح بها الفقيه الحافظ السلفي معارضا فيها رائية أبي نواس في مدح الخصيب يقول ابن قلاقس مستهلا قصيدته بالوقوف على الأطلال :

شجته بظهر الصالحية دور ** أمام بها يبكى فليس يسير (١)

ويقول أبو نواس في المطلع الغزلي المشهور :

أجارة بيتينا غيور ** وميسور ما يرجى لديك عسير (٢)

ومما قاله ابن قلاقس ممتدحا :

أبا طاهر فخرا بما قد حويته ** فما لك في أهل الزمان نظير

محياك هذا ألبس العيد حلة ** بها وجهه للناظرين ينور

أقمت منار العلم شرقا ومغربا ** فأحكامه طرّا عليك تدور

حميت ببذل الجود عرضك فاحتمى ** وللعرض من بذل المكارم سور

أريت سحاب الجود في أفق الدجى ** فبابك من ماء السحاب مطير

فلا غرو إذ كانت أياديك لم تزل ** تسح الندى ألا يكون فقير

إليك أتت تطوى الفيافي ركائبي ** ولما يخب ركب إليك يسير

إذا لم تجرنا من صروف تواترت ** علينا فمن هذا سواك يجير

ويقول أبو نواس مادحا الخصيب بن عبدالحميد :

تقول التي عن بيتها خف مركبي ** عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب ** بلى ، إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر ** جرت ، فجرى في جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة ** إلى بلد فيه الخصيب أمير

---

(١) الديوان ٦٠٢

(٢) ديوان أبو نواس ١٢٣

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ** فأي فتى بعد الخصيب تزور
فتى يشترى حسن الثناء بماله ** ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حلّ دونه ** ولكن يصير الجود حيث يصير

والقصيدتان يمكن أن نعدهما من المعارضات التامة نظرا لاتفاقهما في الوزن ، فكلاهما من بحر الطويل ، والروى وهو الراء المضمومة ، والموضوع وهو المديح الذي هو الغرض الرئيس في كلتا القصيدتين وإن اختلف المطالع ، كما نلحظ أن كلا الشاعرين قد اتخذ من الكرم والجود محورا أساسيا ومنطلقا لمدحه ، فالحافظ السلفي ممدوح ابن قلاقس قد أحاط عرضه بسياج من الكرم الذى هو أشبه بالسحب التي تمطر الخلائق وتعم الأكوان فلا تغادر فقيرا إلا هطلت عليه سحبها وأظلته سماؤها ، ويزداد اقترابا مما نظمه أبو نواس حين يقصر الجود على ذلك الرجل المعطاء الذى تطوى إليه الفيافي ويجير طالبيه من صروف الدهر ونوائب الزمان وهو أشبه شيء بما أضفاه أبو نواس على الخصيب الذي اقترن الجود باسم دون غيره وتشد إليه الرحال دون سواه :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ** فأي فتى بعد الخصيب تزور

وهنا يمكن القول إن ابن قلاقس نجح في أن يصل أسبابه بإحدى روائع الشعر العباسي وهذا في ذاته يضفى على قصيدته ألوانا من الأصالة وصنوفا من البراعة التي تدخل السرور على نفس الممدوح حين يقترن مدحه بما شاده أكابر الشعر في بلاط الملوك وغردوا به في حضرة الأمراء .

ومن نماذج المعارضة الشعرية أيضا تلك القصيدة التي يمدح بها ابن قلاقس القائد الصقلي يزدجرد الخصي ومطلعها :

جرت خيل النسيم على الغدير ** وردت تحت قسطال العبير

ومنها قوله

فقمنا نستنيم إلى قلوب ** تناجت تحت أستار الصدور

نحقق بالوفا عدة الأماني ** ونملأ بالرضا نخب السرور

إلى أن غادرتنا الكأس صرعى ** نفرّ من الكبير إلى الصغير

ونحسب أن ديك بنى نمير ** أمير المؤمنين على السرير

رزقنا التاج والإيوان منها ** وطفنا بالخورنق والسدير

وقمنا في سماء العز نرعى ** جبين الشمس في اليوم المطير (١)

والقصيدة من المعارضات الشعرية لرائية المنخل اليشكرى التي مطلعها:

إن كنت عاذلتى فسيرى ** نحو العراق ولا تخورى

ومنها قوله المشهور :

وعلى الجياد المضمرا ** ت فوارس مثل الصقور

يخرجن من حلل الغبا ** ر يجفن بالنعم الكثير

أقررت عيني من أول ** ئك والفوائح بالعبير

يرفلن في المسك الذكى ** وصائك كدم النحير

(١) الديوان ١٩٣

يعكفن مثل أساود الـــــــــ ** تنوم لم تعكـف لـزور

إلى أن يقول :

فإذا انتشيت فـإنني ** رب الخورنق والسـدير

وإذا صحوت فـإنني ** رب الشـويهة والبعيـر

ولقد شربت من المدا ** مـة بالقليـل وبـالكثير

يا هند مـن لمتـيم ** يا هند للعاني الأسير (١)

وهى معارضة جزئية فالقصيدتان وإن اختلفتا في الوزن فالأولى من بحر الوافر والثانية من الكامل المجزوء إلا أنهما اتفقتا في الـروى والموضوع ، فابن قلاقس يزجي مدحه لهذا الأمير فـي أجـواء مـن الصخب والانغماس في المتع واللذائذ والتطواف بالقصور التي أضحت مضرب الأمثال على مدى التاريخ ، والمنخل ينعـت فـوارس قومـه وأبطال قبيلته ويصف الكواعب من الفتيات اللاتـي يبـادلهن أحاديـث الهوى والتصابي في أجواء من المرح والسرور .

ولابن قلاقس قصيدة لامية تتضح فيها معارضته لامرئ القيس في معلقته التي مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ** بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يقول ابن قلاقس :

قرنت بواو الصدغ صاد المقبل ** وأعربت في لام العـذار المسلسـل (٢)

(١) المنخل

(٢) الديوان ٤٩٦

والقصيدتان تتفقان في الوزن والروى بالإضافة إلى الاتفاق في عدد من المقاطع من حيث الموضوع والجو العام يدل على ذلك قول ابن قلاقس :

وما صدني عن ترك حبك فتنةً ** بخدٍّ كروض أورضاب كسلسل

ولكن لقول قد محا الشعر رسمه ** (وهل عند رسم دارس بالهون منزل)

فالشاعر هنا يضمن بيته شطرا من معلقة امرئ القيس حيث يقول الأخير:

وإن شفائي عبرة مهراقة ** فهل عند رسم دارس من معول

ويقول ابن قلاقس عن نسب الحافظ السلفي وأصوله الفارسية :

هم آل كسرى غير أن تقاهم ** نماهم إلى آل النبي المرسل

لهم دور فضل بالفرات فسيحة ** لضيف المعالي لا بدارة جلجل

ودارة جلجل اسم للموضع المعروف الذي ورد ذكره في قول امرىء القيس :

ألا رب يوم لك منهن صالح ** ولا سيما يوم بدارة جلجل

ويقول ابن قلاقس أيضا :

ولله ألفاظ جلاها يراعةُ ** كعقد بأجياد الطروس مفضل

لآلئ لو كانت نجوما لغادرت ** لياليها والصبح ما لاح

والبيت الثاني يعيد إلى الأذهان قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا ** بصبح وما الإصباح منك

هذه الأدلة وغيرها كثير تؤكد رغبة ابن قلاقس في استدعاء معلقة امرئ القيس وحرصه على استحضارها لتكون معوانا على رسم صورة

مثلى لممدوحه ، وبرهانا على الصدق والمحبة الخالصة ، وليس أدل على ذلك من استدعائه لأشهر معلقات الشعر العربي وإن لم تكن استدعاء كاملا أو معارضة تامة وإنما هي رغبة من الشاعر في اتخاذ معلقة امرئ القيس سياجا يحوط قصيدته وستارا يدثر ما قد يعتري أبياته من هنات ، ونبراسا يستضيء به في رحلته الفنية .

ثالثا : استدعاء الصورة الشعرية

الصورة الشعرية هي الشكل الفني الذي تتخذه العبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها الفنية [١] وتهدف هذه الصفحات إلى تتبع الصور الشعرية في ديوان ابن قلاقس وبخاصة تلك التي يحتذي فيها طرائق القدماء ويستدعي صورهم موظفا إياها للتعبير عن رؤيته الفنية ، ولا غرابة فقد استطاع أن يضيف إليها من خياله الخصب وملكته الفنية ما جعله قادرا علي توظيف تلك الصور وأن يخطو خطوات تتناسب مع عصره وبيئته ، بحيث يمكن القول بأن الصورة التراثية في شعره كانت أشبه بالأساس الذي انطلق منه والدعامة التي ارتكز عليها في طريق الخلق الفني المتميز وهذا غاية يناط بالمبدعين في كل زمان ومكان ، وفيما يلي عرض لبعض النماذج:

يقول ابن قلاقس مادحا االحافظ السلفي :

هو البدر إلا أنه زاد ضوؤه ** فلم تنتقص منه الغوادي الروائح

هو البحر إلا أن جود يمينه ** لوارده عذب وذلك مالح

هو الغيث إلا أنه كلما همى ** تفيض بجدواه الربى والأباطح

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د. عبدالقادر القط م الشباب ١٩٨٨ ، ٣٩١

لك الله ما أنداك والغيث باخل ** وأمضاك عزما والخطوب فوادح
وأوفاك عهدا والحقوق مضاعة ** وأبهاك مرأى والوجوه كوالح [1]

وشاعرنا وإن بدا متأثر بالصور التراثية والتشبيهات التقليدية التي ألح عليها كبار الشعراء في الأعصر القديمة فإنه اقتدر على إضفاء الصبغة العصرية على تشبيهاته واستعاراته مما يشي باستقلال الشخصية الشعرية وتفردها ، وليس أدل على ذلك من تلك اللمحات الفنية الدقيقة التي تتجلى فيما ذكر من التشبيهات ، فالممدوح بدر لكن ضوءه أعلى وأسنى ، وبحر لكن البحار الآسنة تتراجع بإزاء تلك العذوبة وهذا العطاء ، وغيث لكن فيضه من الخيرات قد عم الكون واستغرق جموع القاصدين ، ثم يزيد الأمر تأكيدا فيثبت أن عطاء الممدوح يزداد كلما بخل الغيث ، وعزمه يكون أمضى حين تدلهم الخطوب ، ووفاءه أظهر عند ضياع الحقوق وخراب الذمم ، وضوءه يسطع حين تعبس وجوه الآخرين وتضن أيديهم بالعطاء .

ويقول في مدح الأمير نجم الدين بن مصال :

ملك تحرمت الدنيا بسطوته ** فردّها وهي حلّ والندى حرما

(١) الديوان ٣٩٦

هو الغمام الذي ما حلّ في بلد ** إلا أفـــاض دمـــاء منـــه أو ديمـــا

وهـــو الحســـام الـــذي قالـــت ** خير الحسامين في الأدواء من حسما[١]

فالشاعر وإن احتذى حذو الأقدمين ـــــــ حيث شبه الممـــدوح بالغمام تارة وبالحسام تارة أخرى ـــــ إلا أنه نجح في إضفاء الروح الإسلامية على صوره يؤكد ذلك استحالة الدنيا بأسرها حرما منيعا فـــي ظل هذا الاقتدار الملكي ، فضلا عن التشخيص البارع الذي جعل الغمام يحل في البلاد وأحال الحسام شخصا يحس ويتحرك وينبض بالحياة .

ويقول في مدح ياسر بن بلال :

كالبدر وجها ما استهل وكالـــــ ** ـــــغيث الركام الجود ما أملى

مذ فاخرته الشمس مـــا طلعـــت ** إلا بصفحة وجنـــة خجلـــى [٢]

والمنطلق في هذه الصورة هو الصورة التقليدية فالممدوح يشـــبه البدر في طلعته والغيث في جوده وعطائه ، لكنه فـــي البيـــت الثـــاني أضحى كالشمس تتراجع خجلا من النور الساطع في جبين الممدوح لما يتمتع به من البهاء والألق .

ويقول مادحا شاور بن مجير السعدي وزير الخليفة العاضد ويهنئه بالوزارة :

ولم يـــر قبلـــه بحـــر خضـــم ** أفاض على معاطفه ســـرابا [٣]

رسا طودا وأســـفر بـــدر تـــمّ ** وجاد غمامـــة وســـطا شـــهابا

(١) الديوان ١٧٠

(٢) الديوان ١٨٦

(٣) السابق ٢٧٦

وهي صورة بارعة يتجلى فيها أثر الارتحال عبر البحار وهي توحى بالجدة وتنطق بالتفرد برغم الأثر التراثي الذي يتبدى فيها .

وقال يمدح الشيخ الإمام الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد :

ماذا أقول وقد أبان فضائلا ** جلّت فلم يفخر بها إنسان

إن قلت مثل البدر بهجة ناظر ** فالبدر قد يودي به النقصان

لو قلت تحكيه الغمام سماحة ** فنواله طول المدى عقيان [1]

وابن قلاقس هنا يتجاوز الصورة القديمة التي تقف عند تشبيه الممدوح بالبدر أو الغمام إلى مستوى جديد يبدو فيه البدر متضائلا قد اعتوره النقصان والتراجع بخلاف الممدوح ، ولا غرابة فعطاء الغمام يعتريه النقص بينما الممدوح لا تنقطع عطاياه الذهبية ولا تنفد هباته السخية .

وقوله مادحا الشيخ السعيد ياسر بن بلال ويذكر عودته إليه بعد رحيله عنه :

فيا أيها البحر الذي من هباته ** أعد فيما أنتقى وأعدد

أجرني من البحر الذي أنا صارم ** أجرد من مالي به حيث أغمد

طواني بسحب الموج تحت سمائه ** على أنني يا أيها الشمس فرقد [2]

فالبحر الأول هو الممدوح والثاني هو البحر الذى كثر ارتباط الشاعر به في أسفاره ، ولقد كان للمشاكلة هنا أثر في إضفاء نوع من

(١) السابق ٢٢٣

(٢) الديوان ٢٦١

الجدة والابتكار والقدرة على التوظيف الفني للصورة التقليدية . وقال أيضا :

من في الملوك كمثل الصالح الملك الـــ ** ـــذي يفوح نثاه عنبر إذفرا
كالليث لكن ترى يوم الكفاح له ** في هام الأعداء طر صارما ذكرا
كالغيث لكن حيا هذا لُهَى أبدا ** فمن هنا هو حقا فارق المطرا
كالبحر لكن تصفو مواهبه ** والبحر لابد أن يبدو لنا كدرا
كالشمس بل لو بدا للشمس أخجلها ** كالبدر بل هو حقا يخجل القمرا [١]

فنحن أمام تشبيهات تقليدية لكن الشاعر نجح في أن يصبغها بصبغته ، فعندما يشبه الممدوح بالبحر يضفي عليه صفوا لا كدر فيه وعذوبة لا تشوبها شائبة ، بخلاف البحر الذى لا يخلو من الكدر ولا يصفو على حال ، وحين شبهه بالغيث تراه يفوق المطر عطاء وهطولا وديمومة ، وأعجب من هذا كله تراجع ضوء الشمس ونور القمر أمام جماله وسطوعه .

وقوله في مدح الحافظ السلفي :

يا أيها الحافظ الحبر الامام ومن ** عليه من بعد رب العرش يعتمد
أنت الذي ما يضاهيه ويشبهه ** في الخلق والخُلق ما بين الورى أحد
فأنت بحر لمن وافاك مجتديا ** وأنت بدر وما بين العدا أسد [٢]

وليس المهم هنا هذا الحشد من التشبيهات البارعة في بيت واحد فهذا درب سلكه كثير من الشعراء بل لقد ألح عليه المتصنعون في عصور الضعف والتمحل ، لكن ابن قلاقس شبه السلفي بالبحر عطاء

(١) السابق ٢٧٩
(٢) الديوان ٣٠١

وكرما في أزمنة الفقر والمسغبة ، وصوره أسدا في الأوقات العصيبة لدى مواجهة الأعداء ومقارعة الخصوم في ميادين الحرب والقتال وتلك هي المواطن التي تتبدى فيها شجاعة الشجعان وبطولة الأبطال .

ويقول في إطار المباهاة بالموهبة والفخر بالملكات الشعرية :

وإلى سراة بنى عدى أنتمى ** في حيث تنمى العزة القعساء

قوم هم غرر الزمان وأهله ** والعالمون جبلة دهماء

يتوددون الخطب وهو مهالك ** ويبادرون الحرب وهي فناء

ويخاطبون بألسن البيض التي ** من دونها يتلجلج الخطباء

من كل أروع ضارب بحسامه ** رأس الكمي إذا التظت هيجاء

ناء مناط نجاده فكأنه ** من تحت منعقد اللواء لواء [1]

وهى صورة تتجلى فيها ملامح الشرف والسؤدد ، فانتماء الشاعر ليس إلى سراة بني عدي القرشيين فحسب وإنما إلى أشرافهم وساداتهم الذين هم غرر الزمان ومصابيح الهدى ، ومن بديع صفاتهم ودلائل شجاعتهم أنهم لا يعيرون الخطوب أدنى اهتمام ولا يكترثون بالنوائب أو الحروب وإنما يتلقونها بالبشر والترحاب .

ويتصل بما سبق قوله مادحا ياسر بن بلال :

يا روايا عن ياسر ** خبرا ولم يعرفه خبرا

اقرأ بغرة وجهه ** صحف المنى إن كنت تقرا

والثم بنان يمينه ** وقل السلام عليك بحرا

وغلطت في تشبيهها ** بالبحر فاللهم غفرا [2]

(١)الديوان ٣٦٣

(٢) الديوان ٤٤٥

فالمكونات الأساسية للصورة إنما هي مكونات تراثية سواء في ذلك تشبيه الممدوح بالبحر ، أو ما خلع عليه من أمارات الكرم وملامح الجود ، لكنه نجح في تصوير ما يسطع في جبينه من أمارات البشر وعلامات التهلل والإشراق ، وكلها أوصاف تتقاصر دونها صور القدماء ولا يفي بها مجرد التشبيه بالبحر بعد أن استحال خطيئة كبرى تستوجب العفو وتستجلب الصفح والغفران .

ومن بدائع صوره قوله في رثاء القاضي عبدالعزيز بن الحسين بن الحباب التميمي :

وباعث روح الحمد في معطف العلا ** إذا ما ارتقى يوما فحاز التراقيا

وماسح أعطاف الإمام إذا التوت ** أفاعيه حتى لا يلائم راقيا

وبحر من المعروف لم يبق ظاميا ** فلم تبقه أيدي الحوداث طاميا

ونور من الإحسان ما كان ذاويا ** ولا كان منتاب الحيا منه ضاويا

ونور هدى أسرى به خابط الهوى ** فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا

لمنعاه قام الجوّ بالرعد نائحا ** وبالبرق ملطوما وبالغيث باكيا

وأسبلت الظلماء سود غدائر ** عليه ، أشاب الصبح منها النواصيا

تخرمه الدهر المخاتل صائدا ** فخلفّ حتى الري في الماء صاديا (١)

ويجدر بهذه الأبيات أن تعد من أجمل ما قيل في الرثاء لما تتسم به من الجزالة والقوة ، وما يكتنفها من الصدق العاطفي ، وما تحويه من معان وما ينبث فيها من قيم ، وحسبه دليلا على ذلك وصفه للمرثي بأنه : باعث روح الحمد في معطف العلا ، وبأنه بحر من المعروف ،

(١) السابق ٥٨١

ونور من الإحسان ، فلا غرابة إذا أرعد الجو وبكى الغيث وتراءى البرق أشد ما يكون حزنا وألما ، وأسبل الظلام غدائره وشابت ناصية الصبح ، واستحال الماء الذي يناط به الري ظمآن صاديا ، إنها صورة كلية تآزرت فيها المكونات البصرية مع نظائرها السمعية والحركية لتعبر عن الحزن الذي عم الكون وغطى ملامح الحياة .

رابعا : استدعاء البناء الفني

درج الشعراء القدامى في كثير من قصائدهم على استعمال البناء التقليدي الذى تستهل فيه القصيدة بالغزل أو الوقوف على الأطلال أو هما معا ، ثم يأخذ الشاعر في وصف الرحلة والراحلة وما تجشم من عناء وما قطع من مفاوز ، ثم يتخلص إلى الغرض الأصلي وهو المديح ، ولست بحاجة إلى ذكر بواعث اختيار هذا النمط أو استعراض نماذجه في الشعر القديم ، وحسبي أن أتتبع هذا اللون من القصائد التي استدعى فيها ابن قلاقس النمط التقليدي والبناء القديم محاولا البحث عن بواعث هذا الاستدعاء ومدى اقترابه من طريقة القدماء في بناء قصائدهم ودلالة ذلك على التوظيف الإيجابي أو الاجترار المتكلف .

ويحسن التعرف على أبرز أنواع المقدمات وصورها كما كشفت عنها الدراسات الأدبية والبحوث النقدية ، يقول الدكتور حسين عطوان : (و قد توزع المقدمات اتجاهان : اتجاه أساسي واتجاه ثانوي ، أما الاتجاه الأساسي فيتمثل في المقدمة الطلية والمقدمة الغزلية ومقدمة وصف الظعن وأما الاتجاه الثانوي فيتمثل في بكاء الشباب ومقدمة

الفروسية ومقدمة الطيف ووصف الليل والشكاية من الأقارب والرفاق)[١]

ويقول في موضع آخر : (وكان للمقدمة الطللية ثلاثة أشكال هي: وصف الأطلال ، وصفها مع رحلة الظعن ، ثم وصفها مع وصف المحبوبة ، وقلما كان الشاعر يجمع في المقدمة الطللية بين الأجزاء الثلاثة)[٢]

وتقدم الصفحات التالية عددا من القصائد التي استدعى فيها ابن قلاقس البناء التقليدي والمطالع القديمة سواء في ذلك قصائده التي ابتدأها بالمقدمات الطللية مع وصف الظعن ، والمقدمات الطللية الغزلية ، ومن نماذج النوع الأول قصيدته التي يمدح بها الحافظ السلفي التي يستهلها بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين حيث يقول :

بين اللوى فالجزع فالمتثلم ** دمن خلت من بعد أمّ الهيثم
آثار ركب مدلجين ترحلوا ** من منجد قصدا لها أو متهم
ولقد وقفت بها وقوف متيم ** زمنا أسائلها فلم تتكلم
وسقيتها الدمع المصون تأسفا ** صرفا وطورا مثل لون العظلم[٣]

فالشاعر يبتدئ قصيدته بذكر الأطلال الدارسة والديار المقفرة التي رحل عنها أهلها ويمعن في ذلك إلى درجة تبلغ حد التناص مع زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته المشهورة :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ** بحومانة الدراج فالمتثلم

(١) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي د . حسين عطوان دار المعارف ١٩٧٠ ، ٢٣٧
(٢) السابق ٢٣٨

(٣) الديوان ٢٩٤

فتراه يتخير من المواضع : اللوى والجزع والمتثلم وهي ذات المواضع التي يتكرر ذكرها في ديوان الشعر الجاهلي ، وأهم من ذلك النهج الذي اختاره ابن قلاقس لابتداء قصيدته مستغلا إياه كي يضفي على مدحته تلك الصبغة التراثية المحببة لما تدل عليه من الرسوخ والأصالة .

وبعد المقدمة الطللية التي استغرقت عشرة أبيات يأتي وصف الظعن الذى خلص إليه ابن قلاقس بقوله :

يا عاذليّ كفى فؤادي ما رأى ** منها ، فكفّا لوم كلّ متيم
فلأتركن اللهو عنى جانبا ** ولأرحلنّ على جواد أدهم
هزج الصهيل كأن في حلقومه ** جرسا وأسود كالغراب الأسحم
صافي السواد كأن غرة وجهه ** بدر بدا في جنح ليل مظلم
أو أشقر نهد أقبّ لهيبه ** كالنجم في وسط الغبار الأقتم
يهوي كما يهوي العقاب لصيدها ** ومقدم الأذنين ليس بأصلم (١)

وهذا الوصف الشائق يعيد إلى الأذهان وصف الفرس عند فرسان العرب القدماء وشعرائهم الأفذاذ كامرئ القيس وعنترة وغيرهما ، ويمضي ابن قلاقس مستغرقا في وصف فرسه تسعة أبيات تناول فيها عددا من الأوصاف المحببة لهذا الفرس النادر في سرعته وجمال صوته وسواد لونه مما هيأه للوصول إلى الممدوح الذى وفد عليه وفود المشوق المستهام ، وقد عبر عن ذلك ابتداء من البيت العشرين حيث يقول :

حتى أقبل راحة الحبر الذي ** فاق الورى وعلا علو الأنجم
الحافظ الندب السري المرتضى الـ ** ـعلم الذكي اللوذعي الأكرم
العالم المولى الأبى المصطفى الـ ** ـيقظ العلىّ علا السها المتقدم

أعطى وأسرف في العطاء فكفه ** والبحر يقتسمان نسبة توأم
حلو المذاق لمن يوالى لين ** ولمن يعاديه كطعم العلقم

والحق أن الشاعر قد نجح في رسم صورة مثلى لهذا الممدوح مضيفا إلى الكرم الذى تمدح به الشعراء قديما مزيدا من الأوصاف مع التنويع بين ما هو حسى وما هو معنوي متوسلا إلى ذلك كله بما توسل به القدماء إلى مدائحهم من وقوف بالأطلال ووصف للراحلة ثم خلوص إلى المدح في سهولة ويسر وانتقال من غرض إلى آخر دون أن الشعر المتلقي بأن في الأمر انتقالا ، ولعل السر في سلوك الشاعر هذا النهج هو ما تحقق له من الذيوع والانتشار على مدار الأعصر القديمة فأضحى طريقا ممهدا لمن أراد المدح ، وملاذا لكل من أراد أن يضم ممدوحه إلى طائفة الأمراء والوجهاء الذين ازدانت بذكرهم قصائد المديح في العصور القديمة .

ومن روائع القصائد التي نظمها ابن قلاقس واستدعى فيها استدعاء البناء الفني للقصيدة القديمة للتعبير عن معانى المدح لياسر ابن بلال تلك العينية التي استهلها بالوقوف على الأطلال حيث يقول :

قفا فاسألا منى زفير وأدمعا ** أكانا لهم إلا مصيفا ومربعا
ولا تطلبا إن هم دنوا أوهم نأوا ** بأخبارهم إلا جفونا وأضلعا
هم عمروا قلبي وطرفي وغادروا ** منازلهم فيما تظنان بلقعا
وما البين من شكوى المحبين في الهوى ** ولكن دعا من ضل في الحب فادعى
فيا عاشقا أولى به غير عاشق ** أقمت وساروا كيف لم ترفعا معا
يقول أناس بطن لعلع هاجه ** أكل مكان عندهم بطن لعلعا
نعم أنا أهوى بعدهم كل موضع ** فذكري لهم لم يخل في الأرض موضعا(١)

(١) الديوان ١٨٢

والشاعر يبدو حزينا على فراق الأحبة مستغرقا في وصف مشاعره وخلجات نفسه ، وقد بلغ من عمق هذا الإحساس أن صور نفسه في تلك الصورة الآلمة التي استحال الشاعر في إطارها زفيرا وأدمعا وجفونا باكية وأضلعا مزقها الشوق وأضناها الفراق ، كما يستدعي الشاعر براعته المعهودة في توظيف المحسنات البديعية كالطباق في البيت الثالث الذى نهض بالتعبير عن سكناهم لقلبه وعينه بينما منازلهم أضحت بلاقع مقفرة وأطلالا خربة ، وإمعانا في ترسم خطى الأقدمين يستدعى الشاعر أسماء المواضع التي هيجت أشواق المحبين قديما كبطن لعلع ، بيد أن حبه وشوقه وتعلقه بكل مكان ثوي فيه الأحبة قد أحال كل بقاع الأرض موطنا للمحبوبة وملاذا لهذا العاشق الذى أنهكه الحب وأضناه الفراق .

وبعد المقدمة الطلية ينتقل الشاعر إلى وصف الراحلة لكنها هنا ليست ناقة أو فرسا وإنما هي سفينة تشق البحر وتمخر العباب :

ركبت إليه زاخر الموج طاميا ** وعاصفة الهباب نكباء زعزعا
وظامئة تحت الشراع وإن أبى ** لها ممتطيها أن تفارق مشرعا
تشقق شيب الماء أبيض ناصعا ** بمثل الشباب الغض أسود أسفعا

وابن قلاقس وإن بدا حريصا على استكمال أركان القصيدة القديمة من وقوف على الأطلال ثم وصف للراحلة ثم التخلص إلى المدح لكنه هنا يضفي على قصيدته ملمحا تجديديا بارعا وهو استبدال السفينة بالناقة أو الفرس وتلك خطوة تعيد إلى الأذهان صنيع أبى نواس في ثورته المشهورة على المطالع القديمة واستبدال وصف الخمر بالأطلال ، وبعد الرحلة الشاقة وما يكتنفها من العواصف الهوجاء والأمواج الهادرة التي

أحاطت تلك السفينة الفتية التي هي أشبه بشاب قوى يصارع شيخا هرما للدلالة على السرعة والقوة ، بعد هذا الوصف يبتدئ الشاعر فيما نـــذر قصيدته له وهو المدح فيقول :

وصفت له تاج المديح ولـــم أكـــن ** لأتركـــه جتـــى يكـــون مرصـــعا
فإن قلت زرنا أكرم النـــاس راعنـــا ** بفتكتـــه حتـــى نقـــول وأشـــجعا
سماح يـــروى الإلـــف لا متهجمـــا ** وبأس يـــرد الألـــف لا متـــدرعا

إلى أن يقول :

خدمت بأشعارى محاســن مجــده ** وأخدمنى الــدهر الأبـــي الممنعـــا
وأصفى مياه الفكر منـــى فصـــفقت ** وأروى بنات الشكر منـــي فأمرعـــا
وقـــابلني بالأهـــل والمـــال عنـــدما ** تركت إليه الأهل والمال أجمعـــا (١)

فنحن أمام بطل شجاع بل أسد هصور ورجل كريم سخى استحق أن يلبسه الشاعر تاجا لم يتح لسواه ، وأن يخلع عليه من الأوصاف ما يميزه عن غيره ، وتلك إحدى مقومات الوصف الخالد للإبداع الشعري: إن من البيان لسحرا .

ومن النماذج التي تبدأ بالمقدمات الطللية المشوبة بالغزل قول ابن قلاقس يمدح الأمير عز الملك جلال الدين :

بـــدور الحـــي مالـــت للأفـــول ** فـــلا تســـأل عـــن الحـــي القتيـــل
أقام علـــى المنـــازل مـــن ضـــمير ** وســـار فـــؤاده بـــين الحمـــول
ولولا الحب ما أبصـــرت جســـمي ** بـــربعهم محـــيلا فـــي محيـــل
فهـــل علـــم الأحبـــة أن قلبـــي ** غـــداة البـــين آذن بالرحيـــل
وهـــل ســـرّ العـــواذل أن طرفـــي ** قصير النوم فـــي الليـــل الطويـــل
وفي تلك القبـــاب شـــفاء وجـــدي ** ولكـــن مـــا إليـــه مـــن ســـبيل

(١) الديوان ١٨٣ ، ١٨٤

ولو كتب الوفـاء علـى الغـواني ** لما أصـبحت ذا جسـم عليـل [1]

وعلى هذا النحو يمضى الشاعر مستغرقا في الغزل وشكوى البين الفراق عشرين بيتا ثم ينتقل إلى وصف الراحلة على نحو لا يتجـاوز قوله :

لعـل العـيس تحملنـي إلـيكم ** مواصـلة التعجـرف والـذميل

وكأن الشاعر يعمد إلى استكمال المراحل التقليدية في القصيدة وإن لـم يضف شيئا ذا بال ، وسرعان ما يتخلص إلى المدح قائلا :

ألا إنـي انتصـرت بـآل نصـر ** فما أخشى اسـتطالة مسـتطيل

سحائب أزمـة فرسـان حـرب ** بـدور دجنّـة آسـاد غيـل

لهـم هـمّ كقـدرهم المعلّـى ** وبشـر مثـل فعلهـم الجميـل

إذا شهدوا النـدىّ فمـن نـداهم ** يشـيّد دارس الكـرم المحيـل

فإن ركبـوا فمجتمـع الأعـادي ** يفـرق عـن جـريح أو قتيـل

وإما استصـرخوا لـدفاع ضـيم ** رأيت فعائـل السـيف الصـقيل

فإن تلحق بهـم يومـا سـواهم ** فما السعدان كالمرعى الوبيل [2]

فنحن أمام مدح تقليدي يعد محورا للقصيدة بأكملهـا ولقـد أكـد الشاعر هذا المسلك بتخير الأوصاف التي كـان ينشـدها الجـاهليون ويستلهمونها في أشعارهم كالنجدة وإباء الضيم وشهود الأندية وخـوض المعارك وإغاثة الملهوف ، كما كان طبعيا أن يـرفعهم فـوق الأنـداد والنظراء كما ارتفع السعدان على سائر المرعى وكما علا البدر علـى النجوم والكواكب

(١) السابق ٥٠٦

المبحث الرابع

مزالق استدعاء التراث في شعر ابن قلاقس

إذا كانت الصفحات السابقة قد سلطت الأضواء على الأوجه الإيجابية لاستدعاء التراث والإفادة من عطائه الثري في الشكل والمضمون ، فإن الصفحات التالية يناط بها الوقوف عند المثالب والمزالق التي تكتنف هذا المسلك وتقف حائلا دون الوفاء بالغايات المنشودة والنتائج المرجوة ومن هذه المزالق ما يلي :

أولا : عدم التناسب بين سياق الأبيات والعنصر المستدعى

وهو مأخذ يعيد إلى الأذهان إخفاق بعض الشعراء القدامى في اختيار اللفظ المناسب لمقام المديح كذي الرمة الذي استهل مديحه للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بقوله :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية همّ صحبك بالرواح

فقال له عبد الملك ـــــ وكان ذا بصر بالشعر ونقده ـــــ بل فؤادك أنت ، وما ذاك إلا لأن الشاعر لم يحسن اختيار العبارات التي تناسب مخاطبة الملوك ومديح الأمراء ، وقريب من ذلك صنيع ابن قلاقس عندما استدعى أبياتا نظمت في وصف كلب من كلاب الصيد في سياق المديح والثناء وذلك حيث يقول في مدح الحافظ السلفي:

والحافظ المطلعُ نجمَ سعدِه ** يحـــدو لـــه ببرقـــه ورعـــده

غيثا يضيع الغيث دون ثمره ** (فكل خير عنده من عنـــده) [١]

والشاعر يضمن أبياته شطرا من إحدى طرديات أبي نواس حيث يقول:

---

(١) الديوان ٢٣٢

أنعت كلبا أهلـــه في كده قد سعدت جدودهم بجده

فكل خير عندهـــم من عنده يظل مولاه له كعبده (٢)

فهذا التضمين البغيض يعد ذما موجعا وهجاء مقذعا وسخرية لاذعة لأن أبا نواس إنما يصف كلبا من كلاب الصيد التي تفد على ذويها بخيرات كثيرة ، وهذا بالطبع لا يناسب مقام المدح لا سيما أن الممدوح هو الحافظ السلفي المحدث المشهور والممدوح الأثير لدى الشاعر ، وتلك إحدى المزالق الخطيرة التي ينطوي عليها هذا المسلك نتيجة لوقوع الشاعر تحت سطوة النموذج القديم ورغبته في استدعائه دون تفطن لما ينطوي عليه من سلبيات وما يكتنفه من مآخذ .

ويقول مادحا قاضي الإسكندرية :

يُنْشـــد مـــن ينشُـــد أوصَـــافَه ** (علقـــم مـــا أنـــت إلـــي عـــامر) (١)

وما هذا النشيد سوى شطر بيت الأعشى الذي يقول فيه :

علقـــم مـــا أنـــت إلـــي عـــامر ** النـــاقض الأوتـــار والـــوَاتر (٢)

فابن قلاقس إنما قصد أن يحشد لممدوحه في تلك القصيدة عددا من الأوصاف الحسنة والسمات الإيجابية ، وما ورد في بيت الأعشى من نقض العهود وتضييع الحقوق لا ينسجم بالطبع مع مقام المديح ، ولعل الأعشى قصد ببيته أن يربأ بعلقمه بن علاثه عن التشبه بعامر بن الطفيل فيما وسمه به من بذيء الأوصاف وردئ الخصال ، وأيا ما كان الأمر فإن شاعرنا قد جانب الصواب في هذا الموضع ولم يتخير من

(٢) ديوان أبي نواس برواية الصولي تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي دار الكتب الوطنية أبو ظبي ٢٠١٠ ، ١٨٩

(٣) الديوان ٤٣١

(١) ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق د . محمد حسين م الآداب د ت ٤٥

النماذج التراثية – وهي كثيرة – ما يناسب المقام ويحقق الغاية . كما يستحضر ابن قلاقس شخصية الخليل بن أحمد والمبرّد وذلك حين يمدح السديد هبة الله الحصري فيقول عن فصاحته وبلاغته

وبلاغة تدع المبرد باردا وتقول جهرا ما الخليل خليل

وابن قلاقس لم يحالفه التوفيق في استدعاء هذين العلمين لا سيما أنه في سياق الحديث عن البلاغة فكان الأولى أن يقوم باستدعاء أحد علمائها وهم كثير ، أضف إلى ذلك أن الشاعر إذا كان قد وفق في توظيف النفي في الشطر الثاني (ما الخليل خليل) فإنه لم يكن موفقا في الشطر الأول (وبلاغة تدع المبرد باردا) فهو كعادته يتخذ من الجناس مع أسماء الأعلام وسيلة للتحسين والزركشة اللفظية لكنه في هذا الموضع قد أساء حيث يريد الإحسان ووصم الرجل بالبرود والسماجة ظنا منه أنه وصف لكل غافل عن التعلم تارك للطلب .

ثانيا : التقليد الكامل والاحتذاء التام للنموذج القديم

وبتعبير آخر : طغيان الملامح التراثية مما يشي بغياب الشخصية الفنية ، وعجز الشاعر عن التوظيف الإيجابي للعنصر المستدعى ، والمواءمة الفنية بين القديم والجديد (فالشاعر المجيد هو الذي ينجح في تحقيق هذه المعادلة الصعبة ، فإذا ما طغى أحد طرفي المعادلة على الآخر اختل البناء الفني) (١) والمتأمل في قصائد ابن قلاقس يلحظ كثيرا من مظاهر اختلال هذه المعادلة ، وطغيان الملامح التراثية طغيانا تاما تستحيل القصيدة بإزائه لونا من التقليد الأعمى والاحتذاء التام لخطى الأقدمين ، ومما قاله مادحا السلفي ومفتتحا بالوقوف على الأطلال قصيدته التي مطلعها :

لمن رسوم الديار باللبب ** قد درست من تعاقب الحقب

ويتبدى فيها تقليد الشاعر للقدماء تقليدا تاما واحتذاؤهم لفظا ومعنى احتذاء كاملا ، وليس أدل على ذلك من ذكر النؤى والرقمتين والعيس وبرقة تيماء ووادي الأراك والمربدين ودارمي وغيرها من المواضع التي تردد ذكرها في شعر الجاهليين كالنابغة وزهير وامرئ القيس وغيرهم

ثم ينتقل من الأطلال إلى الغزل بالمحبوبة ابتداء من قوله :

لمياء تبدو في رقة الحضر الـــ ** لطاف حينا وفطنة العرب

ثم يصف الراحلة مستغرقا في وصفها ما تبقى من أبيات القصيدة حيث يقول :

ومهمه تصبح المطي به ** ما بين إرقالها إلى الخبب

ثم ختمها بقوله مخاطبا ناقته الأبيّة :

(١) استدعاء الشخصيات التراثية علي عشري زايد ٢٨٨

أقول يا ناق وهي قد طفقت ** في النسع كالنسع صلبة العصب

مثلك لا يشتكي الكلال ولا ** يئـــــن أنّ المتيـــم الوصب

والطريف أن الشاعر في خضم الاستسلام للنموذج القديم قد أنفق سائر أبياته في ذكر الأطلال ووصف الخمر والراحلة وهى لا تعدو أن تكون مقدمات للغرض الأصلي الذى لم يظفر ببيت واحد من أبيات تلك القصيدة التي تبلغ ستة وثلاثين بيتا متجاوزا بذلك التقاليد التي سنتها جمهرة النقاد ، يقول الدكتور محمد أبو موسى : (ومن طرائق الشعر الجاهلي أن الشاعر ينشيء القصيدة في المديح أو في الهجاء ويبدأ بذكر الصاحبة والديار والرحلة والناقة ويطيل الكلام في ذلك ثم لا تجد الهجاء أو المديح إلا في أبيات قليلة في آخر القصيدة وقد تكون ثلاثة أو أربعة

أبيات) [١]وقصيدة ابن قلاقس التي بين أيدينا فقد خلت تماما من أبيات المدح التي أنشئت من أجلها ، وتلك أمارة التقليد وغياب الشخصية الفنية .

ومن مظاهر طغيان الملامح التراثية أن الشاعر قد يعمد إلى نوع من النقل الآلي والسرد التقريري والاجترار البغيض لنماذج الصور التقليدية في الشعر القديم ، ومعروف أن (آلية النقل تفقد الشعر عنصر الأصالة التي هي جوهر العمل الأدبي) [٢]، يقول في مدح الحافظ السلفي ومستهلا بالغزل :

يا غزالا كالدر ثغرا وكالغصـــــ ** ـــــن قوامـا والبـدر فـي

لا تعذب بـالهجر صـبا عميـدا ** مستهاما فـالهجر مـرّ المـذاق

يا خليلـي خليـاني فمـا يحـــ ** ـــسن لوم المتيم المشـتاق [٣]

وقوله مادحا :

هو البحر بالعرفان والعرف قـد ** فأنهـل منـه سـائل ومُسـائل

فحاتم طي في السـماحة مـادر ** لديه وقس في الفصاحة باقل [٤]

وقوله :

قولوا لـنجم الـدين بـل بـدره ** بل صبحه الزاهر بل شمسـه [٥]

من ماله يضـعف عـن جـوده ** وجـوده يضـعف عـن نفسـه

(١) الشعر الجاهلي ، دراسة في منازع الشعراء م وهبة ط الأولى ٢٠٠٨، ١٢

(٢) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر د. عائشة عبد الرحمن دار المعارف ط الثانية ١٦٢

(٣) الديوان ٤٨٧

(٤) السابق ٥١٠

(٥) السابق ٤٥٥

ويقول في سياق الغزل :

فكأن الـدموع طـل بـدا مـن ** نرجس العين تحتـه جلنـار [١]

وقوله يمدح ابن خليف ويهنئه بمولد أخيه الشيخ أبى محـمد :

كوكـب لاح بـين بـدر وشـمس ** فسـرى بالسـرور فـي كـل نفـس

سفرت عن جبينه غـرة الفضـ ** ـل وأبدى العلا طلاقة أنس [٢]

وقوله يمدح متملك صقلية :

وما الملك إلا للذي قالـت العـلا ** هو الغيث إذ يهمي هو الليث إذ يحمي [٣]

وقوله يمدح الشيخ ياسر بن بلال :

هذا هو البحر لـم تتـرك مواهبـه ** والبحـر مـن آخـذ منـه ومتّـرك

لم يحك جود يديه الغيـث منهمـرا ** ومثل ما حكت فيه الروض لم يحـك [٤]

وقوله في الأمير بن شمس الخلافة :

كفاك في الغيث مثـل عارضـه ** إذا انبرى فيه ضارب المثـل [٥]

ويقول مصورا شرف الممدوح وشهرته وبطولته :

للسيف في كفه نـار علـى علـم ** إن كنت يوما سمعت النار والعلما [٦]

ويقول :

عجبا للجفـون وهـي مـراض ** كيف تستأثر العقـول الصـحاحا

قل لأعشـارك التـي اقتسـموها ** ضربوا فيك بالعيون القـداحا [٧]

والشاعر في هذه النماذج وغيرها يجتهد فـي اسـتدعاء الصور التراثية واحتذاء طرائق القدماء في التصوير لكنه أخفق

(١) السابق ٣١٢
(٢) السابق ١٠٧
(٣) الديوان ١٤٦
(٤) السابق ١٦١
(٥)السابق ١٦٣
(٦)السابق ٣٨٦

في تحقيق التوهج العاطفي والصدق الشعوري الذى يأسر المتلقين ويأخذ بألباب القراء .

ثالثا : الوقوع في دائرة المبالغات المرذولة ، كقوله مادحا ملك صقلية

فكم من مريض القلب صحح عزمَه ** ونفسِ مروعٍ قد أعاد إلى الجسم
ففاز بنُور الرّبّ يدعو إلى الهدى ** ويحيي لنا الموتى ويبري من السقم
وزاد على الفعل المسيحي بالذي ** يعلمه حدُّ الحسام من الحسم (١)

فهذا الملك النصراني قد أوتي من المعجزات ما يجعله قادرا ـــ في زعم الشاعر ـــ علي إبراء الأسقام وشفاء الأمراض بل وإحياء الموتى تشبيها له بالمسيح عليه السلام ، وزاد على ذلك بأن خلع عليه مقدرة على مجابهة الخصوم وإعمال السيف في الأعداء ، والشاعر في هذا الموقف يستدعي بعض آيات القرآن الكريم التي تجلت فيها العظمة الإلهية ، وامتن فيها على نبيه عيسى عليه السلام بإحدى المعجزات الباهرة حيث يقول جل في علاه : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني) وشتان بين الإعجاز الإلهي والاقتدار البشري .

وفي مدح ياسر بن بلال يستدعي الشاعر سورة من سور القرآن الكريم بأكملها حيث يقول :

لولاه في عدن لأهبط ربُّها ** آمالَها وتزلزلت زلزالها
لكنه لما تقلد أمرها ** أجرى الإلهُ على السعادة فالها
فرأتْه من بعد الإله مقسما ** أرزاقَها ومقدرا آجالها
وأرته ما لم يطلع من قبله ** أحد عليه وأخرجت أثقالها
حتى كأن الله جل جلاله ** أوحى له وكأنه أوفى لها (٢)

(٢) الديوان ٥١٣

والأبيات تحفل بكثير من المبالغات التي تبعث عليها مطامع الشعراء ورغبتهم في نيل الجوائز والصلات ، ومن ثم رأينا ابن قلاقس يضفي على ياسر بن بلال هذا أوصاف العظمة وأمارات الملك والاقتدار ، فلولا وجوده في تلك البلاد لرزئت بالأهوال والنكبات ، لكنه حين أضحى لها مليكا وعليها أميرا وسلطانا قد فجر لها من ينابيع الخير والسعة مالا يستطيعه غيره أو يقدر عليه أحد سواه ، وسرعان ما يستحضر قارئ هذه الأبيات تلك السورة القرآنية الجامعة التي تتراجع بإزائها محاولات الشاعر البائسة محاكاة النهج القرآني المعجز حيث يقول الحق جل في علاه : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها ﴾ (١) .

ومما ورد في سياق مدحه الحافظ السلفي :

في الفضل أحمدُ أحمدُ الأزكى لقد ** حاز المدى سبقا فأعيا السُّبَّقا

أعطى اتقاء للإله فكان مَن ** قد قال فيه الله أعطى واتقى (٢)

ولقد بالغ الشاعر فزعم أن هذه الآيات من سورة الليل إنما تنزلت في ممدوحه وقد عمد إلى استدعائها لإضفاء هالة من التعظيم علي الحافظ السلفي .

ويتصل بما سبق من مبالغات قول ابن قلاقس في مطلع إحدى قصائده الوصفية :

نسخ الجد مقال اللعب ** ومحا السيف حديث الكتب (٣)

---

(١) سورة الزلزلة الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

(٢) الديوان ٤٨٤

(٣) الديوان ٣٧٠ ١٧- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي تحقيق د . محمد عبده عزام دار المعارف ط الخامسة ١٩٨٧ سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٠ ص٤٠

وأبـــان الفضـــل عـــن أربابـــه ** فقضـــى للمجـــد أوفـــى أرب

والأخذ هنا من بائية أبي تمام في فتح عمورية التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتـــب ** في حده الحد بين الجد واللعـــب (١)

بيد أن بائية أبي تمام قد تجاوزت حد البراعة وصـــارت مـــنهلا للشعراء والأدباء على مر العصور ، بل لقد اســـتحالت نشـــيدا للعـــزة الإسلامية والشموخ العربي علي مدى الشعر قديمة وحديثه

وقوله مفاخرا الأديب أبا بكر العبدي ومباهيا بشعره أســـاطين الشـــعر وأرباب الفن :

أعيـــا زهيـــرا كـــم ينازعـــه ** (لمن الـــديار بقتـــة الحجـــر)

وثنا (قفا نبك) التي اشـــتهرت ** تمكو فرائصها مـــن الـــذعر (٢)

ولقد بلغ الشاعر من فرط اعتداده بموهبته وفخـــره بملكاتـــه أن ادعي لنفسه التفوق على حكيم الشـــعراء الجـــاهليين وزعـــيم مدرســـة الحوليات زهير بن أبي سلمي لا سيما في تلك القصيدة الذائعـــة التـــي سطر فيها بأحرف من إبداع سفرا للمجد خلد به ذكر ممدوحه الأشـــهر هرم بن سنان ، وليس هذا فحسب وإنما زعم أن بدائع شعره وروائـــع قصائده تراجعت بإزائها أشهر معلقات الشعر العربـــي فـــي العصـــر الجاهلي لامرئ القيس بن حجر وها هي ذي ترتعد فرائصـــها خوفـــا وذعرا من رائية ابن قلاقس التي ختمها بقوله :

خـــذها إليـــك عقيـــب أولـــه ** تسري إليك علـــي يـــد النســـر

(٢) الديوان ٤٤٦

تسري علي يــد مــن محاســنه ** كادت تكون يتيمــة العصــر [1]

رابعا: غربة العنصر المستدعى عن وعي المتلقي

وبيان ذلك أن الشاعر حين يعمد إلى استدعاء إحدى الشخصيات التراثية – مثلا – فلابد أن يتخير شخصية تمثل نموذجا بشريا مألوفا لدى الشاعر والمتلقي في وقت معا ، يقول الدكتور علي عشري زايد : (إن أول المبررات الفنية لاستدعاء أية شخصية هو استغلال ما تملكه هذه الشخصية من قدرات إيحائية قوية ناجمة عما ارتبط بها من دلالات في وجدان المتلقي ووعيه بحيث يكون استدعاء الشخصية التراثية مثيرا لتلك الدلالات وباعثا لها ، فإذا كانت الشخصية ليس لها في وجدان المتلقي أية دلالات من الأساس فإنه ينفي المبرر الأول لاستدعائها) ،

والحق أن ابن قلاقس نجح في تحقيق هذه الغاية إلى حد كبير ، بيد أنه في بعض الأحيان يعمد إلى الغوص في أعماق التاريخ والإيغال في دقائق الأحداث مستدعيا بعض الشخصيات التي ليس لها رصيد كاف من الألفة في وعي المتلقي ، ومن نماذج الشخصيات الغامضة التي كثر استدعاؤها في شعر ابن قلا قس شخصيه البراض الكناني أحد فتاك العرب في العصر الجاهلي ومما قاله شاعرنا في مدح أبي الفياض :

بــرض أبتــة همــة البــراض ** فواصــلا الطــوال بــالعراض [2]

(١) السابق ٤٤٧

(٢) الديوان ٢٥٥ والبرض هو الماء القليل (١) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي مؤسسة الرسالة ط ٢٠٠١ ج٢١ ، ٣٣٨ استدعاء الشخصيات التراثية ٢٧٩

ويقول متغزلا في سياق المدح :

فتكت بي جفونهـــا فـــي هواهـــا مع عـــزي كفتكـــة البـــراض [١]

**

واستدعاء الشاعر لتلك الشخصية التي يكتنفها الغموض قد وقـــف حائلا دون التعبير عن رغبته في إضفاء لون من المبالغة في تصـــوير همة الممدوح في البيت الأول ، وقوة الأثر التي تركتها أجفان المحبوبة الساحرة في البيت الثاني وقد كان له في مشاهير الفتاك مندوحة عن هذه الشخصية الغامضة التي لا تمثل نموذجا بشريا مألوفـــا لـــدى الشـــاعر والمتلقي .

(١) الديوان ٣١٨

الخاتمة

- شاعرنا هو أبو الفتح نصر الله بن قلاقس الإسكندري (٥٣٢ــ٥٦٧) كان دائم الترحال يعرض بضاعته على الأمراء والوجهاء طلبا للمال وتكسبا بالشعر مادحا ولاة الفاطميين تارة والأيوبيين تارة ونظائرهما في صقلية واليمن تارة أخرى ، فضلا عن كبار العلماء كالحافظ السلفي ومشاهير الكتاب كالقاضي الفاضل .
- اقتدر ابن قلاقس على معالجة فنون الشعر وفي طليعتها المدح والوصف والحنين ، فضلا عن براعته في التشبيه وولوعه بالمحسنات البديعية .
- أظهر ما يتسم به شعره هو الأثر التراثي بمصادره المتنوعة سواء في ذلك المصادر الدينية المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي ، والمصادر التاريخية والمصادر اللغوية والأدبية
- عمد ابن قلاقس إلى استدعاء النص التراثي سواء أكان دينيا أو شعريا لتحقيق لون من التوظيف الإيجابي والتأثر المحمود ، والإفادة من هذا المسلك الفني البارع في نقل تجربته والتعبير عن رؤيته .
- نجح الشاعر في استدعاء عدد من الشخصيات التراثية وإن لم يتجاوز حد التوظيف الجزئي الذي يناط به تسليط الضوء على بعد من أبعاد التجربة الشعرية ، ومن هذه الشخصيات : الأنبياء والخلفاء الراشدون وبعض علماء الحديث كالشافعي ومالك ، وطائفة من الجاهليين مثل قس بن ساعدة وامريء القيس وزهير، وعدد من الشعراء والكتاب في العصور المتعاقبة كجرير والبعيث

وأبي تمام والبحتري وغيرهم ، مع الحرص على تخير الأسلوب الذي يتفق والشخصية المستدعاة .

- واستكمالا للأنماط التراثية حرص الشاعر أن يلبس أبياته أثوابا من الألفاظ القديمة والمعجم الجاهلي مما يدل على الانتماء للبيئة العربية بكل دقائقها وتفاصيلها ، ورغبته في إضفاء الصبغة التراثية على أشعاره وقصائده .
- حظيت بعض النماذج القديمة بمعارضة ابن قلاقس سواء أكانت معارضة تامة أم جزئية ومن أمثلتها : معارضته لرائية أبي نواس في مدح الخصيب ، وقصيدة المنخل اليشكري الرائية أيضا ومعلقة امريء القيس ، وكلها تؤكد حرصه على استحضارها لتسهم في رسم صورة مثلى لممدوحيه ، ولتكون سياجا يحوط قصائده ، ونبراسا يستضيء به في رحلته الفنية .
- حرص ابن قلاقس على احتذاء صور القدماء موظفا إياها للتعبير عن رؤيته الفنية ، واستطاع أن يضيف إليها من خياله الخصب وملكته الفنية ما جعله قادرا علي توظيف تلك الصور توظيفا إيجابيا ، وكانت الصورة التراثية في شعره أشبه بالأساس الذي انطلق منه والدعامة التي ارتكز عليها في طريق الخلق الفني المتميز .
- إمعانا في ترسم خطى الأقدمين استدعى ابن قلاقس البناء التقليدي والمطالع القديمة سواء في ذلك المقدمات الطللية مع وصف الظعن، والمقدمات الطللية الغزلية ، والسر في سلوك الشاعر هذا النهج هو ما تحقق له من الذيوع والانتشار على مدار التاريخ الأدبي فأضحى طريقا ممهدا لمن أراد المديح ، وملاذا لكل من يطمع في ضم

ممدوحه إلى طائفة الأمراء والوجهاء وإن لم يعدم بعض الملامح التجديدية .

- من سلبيات استدعاء الشاعر للتراث : عدم التناسب بين سياق الأبيات والعنصر المستدعى من جهة الشاعر ، والتقليد التام للنموذج القديم وطغيان الملامح التراثية مما يدل على غياب الشخصية الفنية في بعض الأحيان ، ووقوع الشاعر – بتأثير من سطوة النموذج القديم – في دائرة المبالغات المرفوضة ، وغربة العنصر المستدعى عن وعي المتلقي .

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- الاعلام للزركلي دار العلم للملايين ط ١٥ مايو ٢٠٠٢
٣- أدب مصر الإسلامية د . محمد زكريا عناني ، د. سعيدة رمضان ١٩٨٨طبعة خاصة .
٤- الأدب في العصر الأيوبي د . محمد زغلول سلام منشأة المعارف الجزء الثاني .
٥- استدعاء الشخصيات التراثية د. علي عشري زايد دار الفكر العربي ١٩٩٧
٦- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية ١٩٣٥الجزء الثامن الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط الثانية ١٩٩٧
٧- تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص د. محمد مفتاح المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط الثالثة ١٩٩٢
٨- توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر مجلة فصول مجلد ١ العدد ١١ ١٩٨٠
٩- ديوان ابن قلاقس تحقيق الدكتورة سهام الفريح مكتبة المعلا الكويت ط الأولى ١٩٨٨
١٠- ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق د . محمد حسين م الآداب د ت

١١- ديوان الإمام الشافعي إعداد وتعليق محمد إبراهيم سليم م ابن سينا

١٢- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي تحقيق د . محمد عبده عزام دار المعارف ط الخامسة ١٩٨٧ سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٠

١٣- ديوان أبي العتاهية دار بيروت ١٩٨٦

١٤- ديوان أبي نواس برواية الصولي تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي دار الكتب الوطنية أبو ظبي ٢٠١٠

١٥- ديوان امريء القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري مركز زايد للتراث والتاريخ ط الأولى ٢٠٠٠

١٦- ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي دار المعارف الطبعة الثالثة

١٧- ديوان بشار بن برد شرح وتعليق محمد الطاهر بن عاشور لجنة التأليف والنشر ١٩٦٦

١٨- ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم الشنتمري تحقيق درية الخطيب ولطفي السقال ط الثانية المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت د ت

١٩- سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي مؤسسة الرسالة الجزء الثالث

٢٠- شعر مروان بن أبي حفصة جمع وتحقيق دكتور حسين عطوان دار المعارف ط الثالثة سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٩

٢١-شرح ديوان للمتنبي عبد الرحمن البرقوقي دار الكتاب العربي ٢٠٠٦ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني موقع الوراق ج ١
٢٢-قصة الأدب في مصر د. محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل ط الأولى ١٩٩٢ ج٢
٢٣-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار دار الكتب العلمية تحقيق كامل سلمان الجبوري الطبعة الأولى الجزء الثامن عشر ١٨
٢٤-معجم البلدان لياقوت الحموي دار صادر بيروت ط الثانية ١٩٩٥الجزء الثاني
٢٥-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق د . إحسان عباس دار صادر بيروت ج ١